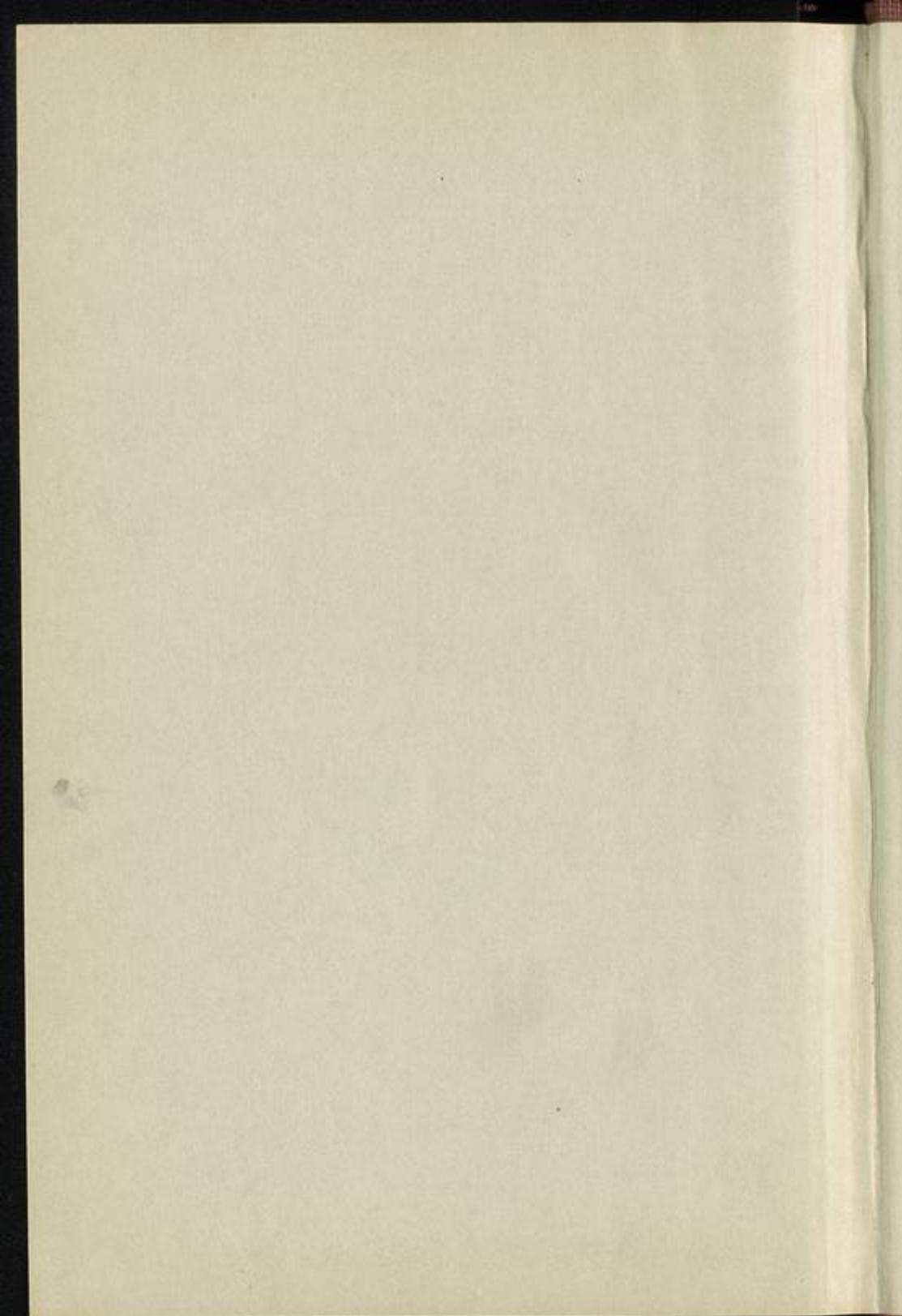
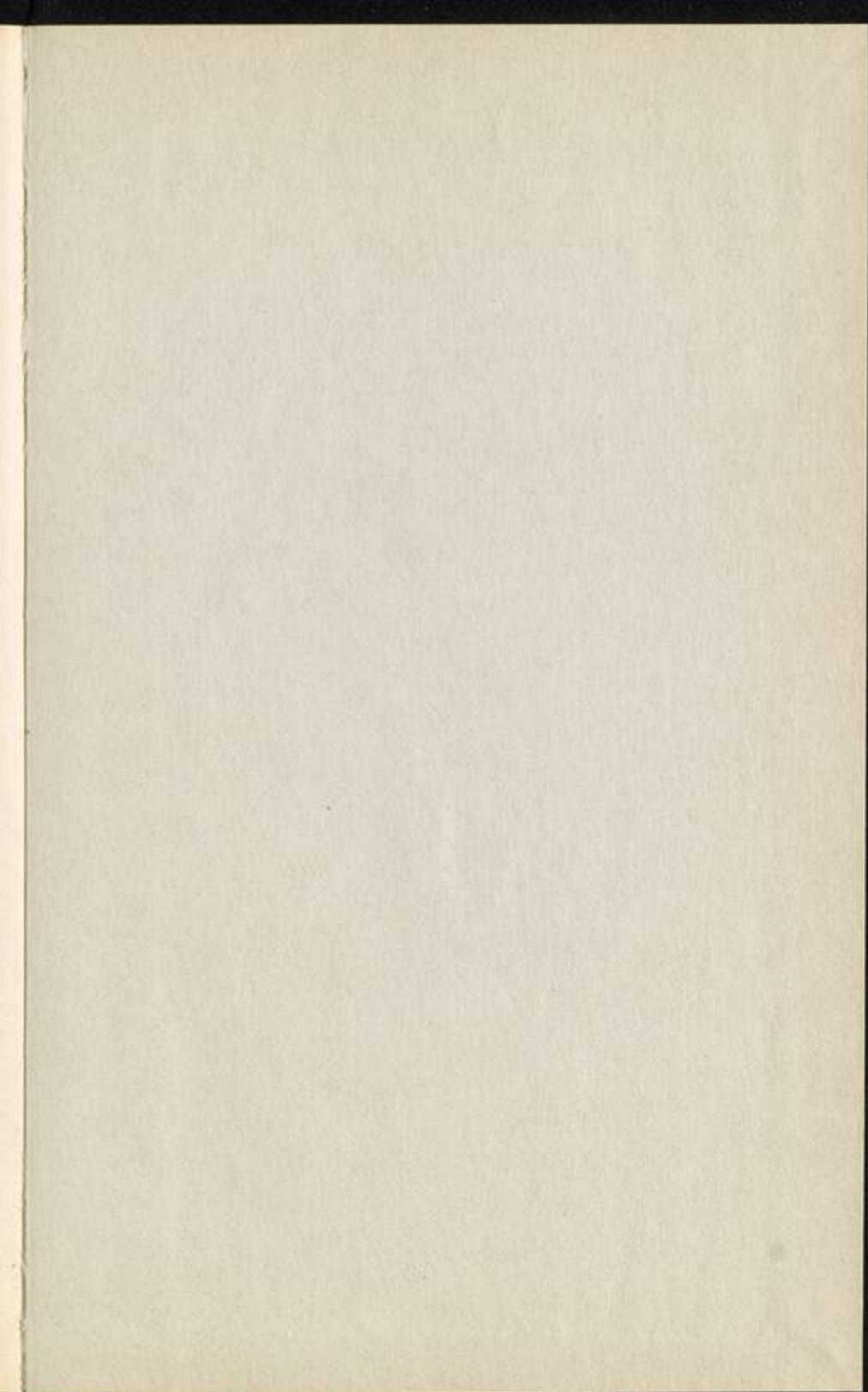


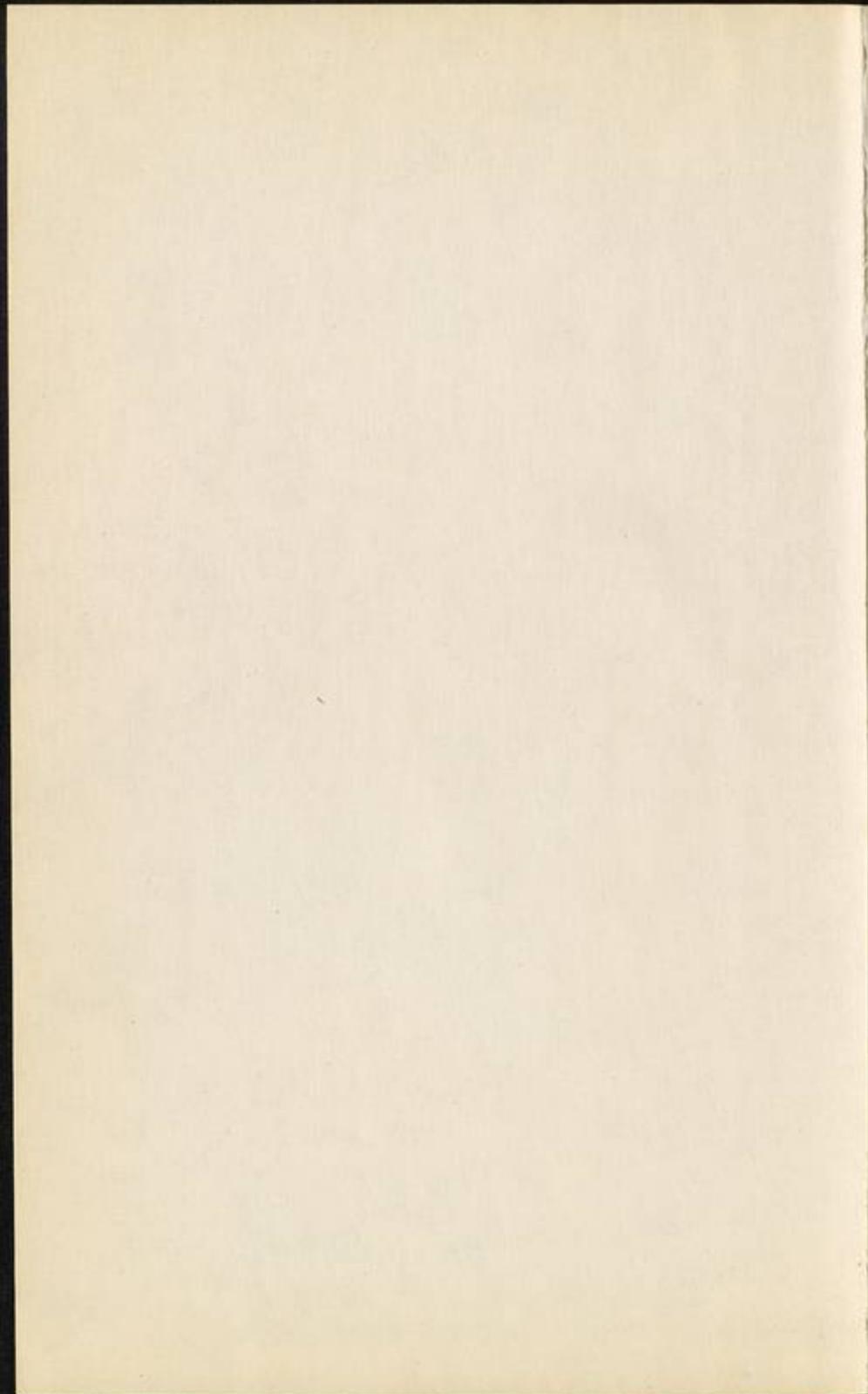
Columbia University
in the City of New York

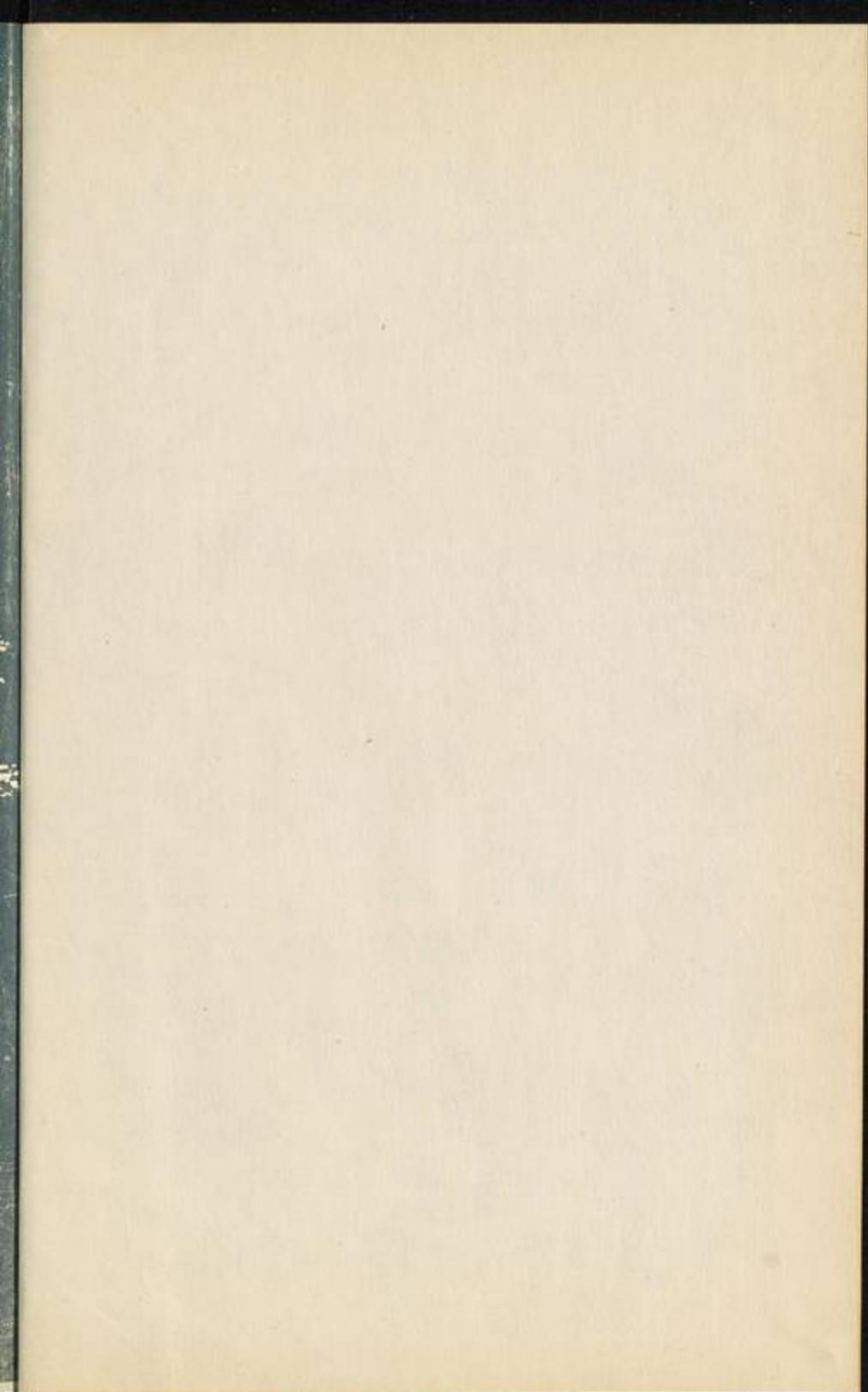
THE LIBRARIES





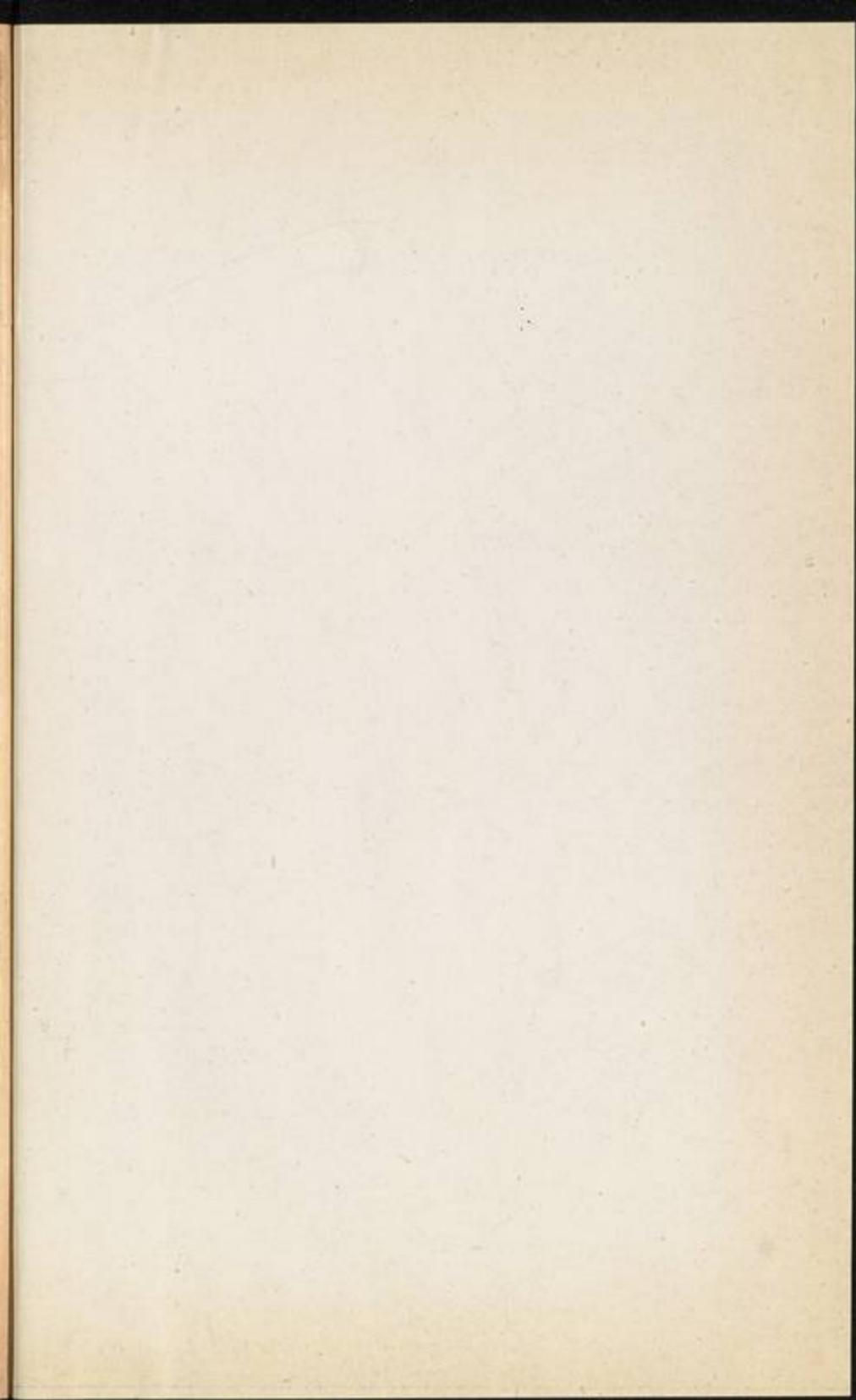






۱
انقران

بحث جدید : امجد صبیح



C
352
PT 20 - 2096
Halaby
17/7/45

ع

القرآن

بیتام
مکتبہ عربیہ
مصر

الثمن ۲۰ قرشاً

ALIBRULOO
VTIPEVIMU
MAGAZINE

مکتبہ عربیہ اسلامیہ
مصر

893.7K84

1894

45-33141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُفَدِّمَةٌ

صلتي بالقرآن قديمة ، هي نفس الصلوة التي بين كل مسلم ينشأ في مصر
وبين القرآن . . يحفظ خفاف السور وهو لم يبلغ السادسة بعد ، ويتخذها
أداة صلاته ، في هذا السن المبكر ، وأداة خوفه في نفس الوقت . . لانه يقرأ
مع معلمه « إنا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك وانحر ، إن شئتَ هو
الأبتر » ويسمع أن الكوثر نهر ، وان النحر هو الذبح ، وأن البتر هو القطع ،
فلا يكاد يخلو إلى أحلامه وخيالاته حتى تتراءى له ذبائح وأشلاء ، وأنهار
من الدماء ، يظل يرهبها ليله ، ويردد الفاظها في صلاته نهاره .
ولقد علمونا صغارا أن نتلو جزء « عم » ، وأن نحفظه حفظاً جيداً ، فاذا
فرغنا شرعنا في جزء « تبارك » ثم في جزء « قد سمع » . . ولنا في كل جزء
هبات من السماء ، وهي هذه التصور الفسيحة في الجنة التي نمرح فيها ما نشاء
ونضحك كيف نريد ، ونأكل من هذه الأثمار ، ومن هذه الأطيار ،
وتراءى لنا الغلمان والخورى أبهى صورة وأبدع زينة . . نعد بهذا الجزاء

فنقبل صباحنا كله ، وصدراً من مسائنا على السور نردها ونرتلها ، ونرفع بها أصواتنا ، حتى إذا خلونا إلى فراشنا ، عادت صور اللهب ، وصور الزبانية ، تسد علينا الأفق ، تقترب منا حتى تكاد تحرق وجوهنا ، فنختفي تحت الفراش ونجيد إحكام الغطاء على وجوهنا حتى تضيق أنفاسنا .

هذه الصورة الساذجة عن صلة الطفولة بالقرآن الكريم ، هي ما أحببت أن أقدم به مقدمتي ، لكي ألفت النظر إلى أن فقهاء ربع قرن مضى كانوا أشداء على إفهام الصغار ، يبالغون في الارهاب كما يبالغون في الوعد بالثواب ، فإما أن تلتوى معهم هذه الافهام الغضة اليانعة ، وإما أن تنصرف عنهم ، وكلا الأمرين شر . . وأحسب أن دنيا الطفولة الآن استقامت بعض الشيء ، وأن هذه الصور القديمة التي تحتزمها الذاكرة فيما تحتزن من ذكريات لم تعد موجودة . .



وما أشبه هذه الحال عندي ، بما كان عليه فهم كثير من العرب للقرآن وللإسلام في فجر حياته ، فهو في تقديرهم هذه التفسيرات المادية المغرقة في ماديتها للحياة الآخرة ، والتي يقل نصيبها من المعنويات بقدر ما يقل فهم هؤلاء العرب لحكمة الإسلام العليا ، وهي التوحيد في أسمى صورته ، وأكرم مظاهره : وحدة الإله ، ووحدة الكون كله . . وقدرة الإله التي لا يحدها حد . . حكمة القرآن هي الدعوة للخير كله والجمال كله والحب كله ، والعمل النافع الذي

يفيد النفس والناس، وينظم ما بين البشر من صلوات، ثم هذه العبادات السهلة النظيفة المشرفة التي تحقق للمسلم ألواناً من راحة الضمير، وراحة البدن، وراحة الروح: فهذه الصلاة كل يوم خمساً، وهذا الصيام كل عام شهراً، وهذه الدعوة إلى بر الفقير بقدر معلوم، وهذا النصح بارتياح البيت العتيق وزيارة مهبط الوحي وأكبر بيت للتوحيد في الوجود، والنظر إلى هذا الحجر وهذا الجبل وهذه الصحراء وهذه الطبيعة كلها التي شهدها محمد عليه السلام قبل ثلاثة عشر قرناً... فرح فيها وحزن، وجاهد فيها وجوهد، وصابر فيها وصبر، حتى أنفذ الله وعده ففاز وانتصر..

هذه الدعوة السمجة السهلة التي لا تعقيد فيها ولا إبهام هي الإسلام الذي جاء به القرآن: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»



ولئن كان بعض العرب الذين عاصروا رسول الله قد فهموا القرآن فهماً يشوبه الكثير من النقص، فقد فهمه الصحابة الأقربون من النبي.. فهمه تلاميذ محمد عليه السلام الذين يسمعون منه، ويأخذون عنه، فهماً أدنى إلى الصواب، بل هو الصواب كله.. وحسبهم أن يكون معلمهم هو صاحب الرسالة ومن نزل عليه وحى القرآن..

إلا أن هذا الفهم من الصحابة — وحتى من أكثرهم علماً وأعمقهم تفكيراً — لم يعن بالمشكلات ، أو يعوص وراء المعاني المعقدة . . . كان فهما لاجمال القرآن واستخلاصاً لروح الاسلام الصافية من آياته المحكمات . . .

روى أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن كلمة « الأب » في آية « وفا كهة وأبا » . . . فقال عمر : نهينا عن التكلف والتعمق . وقد ذكر المفسرون أن « الأب » هو المرعى ولكني سمعت من الأستاذ شاده أن « أبا » كلمة حبشية معناها الفا كهة ، أي أن الآية ذكرت الكلمة العربية وما يرادفها بالحبشية تأكيداً وتثبيتاً للمعنى المراد .

وكانت فطرة الاسلام في ذلك الوقت تلامم هذا النظر العام للقرآن ، تستمد منه روح القوة والكفاح ، وتأخذ عنه نظام الجماعة كما يدل عليه ظاهر الآيات ، مسترشدة في كل هذا بأحاديث رسول الله وسننه . . .



فلما تعقدت حياة الاسلام بكثرة الحروب ، ودخول شعوب ودماء غريبة في الاسلام ، ولما كثر المال ووقفت دفعة الفتح الأولى أو كادت ، وجد المسلمون فراغاً من الوقت ، فراحوا ينظرون إلى القرآن نظراً آخر ، غير نظر الألى سلفوا من صحابة رسول الله . . . راحو يراجعون السور والآيات ويقلبون الألفاظ والحروف ، وينقبون عن معانيها وعماء وراء هذه المعاني . . .

ولئن كان هذا النوع من العلم محموداً ، بل هو محمود كل الحمد ، لأنه تفقه في الدين وفي اللغة وفي الأدب ، إلا أنه كان سلاحاً ذا حدين ، فقد فتح أبواباً للخلاف بين المفسرين والمفتين . وراح قوم يتأولون القرآن ويخرجونه عن معانيه . . وراح قوم يضيفون إلى الآيات ما لا تحتل من شروح ومعان ، يؤيدون بها حيناً حجج السياسة ، وحيناً حجج المذاهب الفقهية المتعارضة . . إلا أن هذا الخلاف — وهو أمر طبيعي في كل جماعة انسانية تأخذ نصيبها من الترف المادي والترف العقلي — لم يؤثر على مجموع المسلمين . فبقى أهل السنة هم كثرة المدركين لحقائق القرآن دون تعسف في المعنى ، ولا إرهاب للالفاظ .

وأما الآن فهرست ابن النديم ، هذا الكتاب الخصب الغزير النفع ، فقد أورد في الفن (القسم الثالث) من المقالة الأولى قائمة بأسماء الكتب وأسماء المؤلفين التي اجتمعت لديه ، وطالها بنفسه ، تبحث في علوم القرآن ، وتقع هذه القائمة في أكثر من عشرين صفحة من كتاب الفهرست ، فهو يورد مثلاً أسماء ستة كتب في « لغات » القرآن ، هي : كتاب لغات القرآن للفراء ، وكتاب لغات القرآن لأبي زيد ، وكتاب لغات القرآن للأصمعي ، وكتاب لغات القرآن للهيثم بن عدي ، وكتاب لغات القرآن للقطيعي ، وكتاب لغات القرآن لابن دريد (لم يتم) ويورد في قراءات القرآن أسماء اثنين وعشرين كتاباً ومؤلفها ، ويورد في تفسير القرآن أضعاف هذا العدد ، وكذلك

في غريب القرآن وفي نقط القرآن وشكله ، وفي لامات القرآن ، وفي وقفه
وابتدائه، وفي متشابهه وهجائه، وفي مقطوعه وموصوله، وفي اختلاف المصاحف
وفضائل القرآن .. الخ .

وهذه المئات العديدة من الكتب التي رآها ابن النديم هي بطبيعة
الحال غير مالم يره ، فإذا عرفنا أنه عاش حتى نهاية القرن الرابع الهجري ،
قدرنا أى ذخيرة علمية كانت موجودة حتى ذلك العهد ، ولو أن أكثرها لم
يصل إلينا مع الأسف فقد أضاعت غارة التتار المحربين هذا التراث العظيم ..
ولكنها أبت لنا هذا السجل الذى أرخ مدى النشاط العقلى العظيم الذى
كان القرآن باعته لدى المسلمين حتى عصره ...

فإذا طويينا هذه القرون الأولى على مجمل ، وأشرفنا على العصر الحاضر ،
فانا نرى علوم القرآن تتجه وجهة أخرى غير ما كان عليه الحال فى ذلك
الزمن الأول ..

نرى بلاد الإسلام تكاد تعيش عالة على هذا التراث القديم ، بل هي
لاتحيد النظر فيه ، ولا الوقوف عنده ، فهي تختار أيسر الكتب ، تتدارسها
وتتناقلها ، ولا تتجاوزها إلى غيرها ، لأن المنهج المرسوم قضى بأن يقرأ هذا
التفسير أو ذلك ... أما البقية فخرأن الكتب وفتراتها أولى بها ..

وتقول « تكاد .. » بلاد الإسلام تقف عند هذا الحد ، لأننا لا نستطيع
أن نهمل هذا القبس المضى الذى ينبعث من ذكرى الإمام محمد عبده ،

والذي كانت حياته وجهوده سبباً في إيقاظ بعض المهتم ونقطة تحول خطيرة في تاريخ العلم الحديث . فقد دعا الى تجديد مقاييس الفكر الإسلامى ، ونفذ عملياً ما دعاله ، بأن فسر بعض القرآن ، ودعا إلى عدم الخوف من اقتحام هذا الباب لذوى البصائر ، فكانت من بعده مدرسة المنار ، التي قام عليها الشيخ رشيد رضا ، والتي انتهت الينا بتفسير المنار وغيره . كما كان تفسير العلامة فريد وجدى ومقدمته النفيسة عن القرآن . ولا ننسى أيضاً تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الذى يتمتع بشهرة في وسط آسيا . وكتاب إعجاز القرآن للرافعى .

هذا هو تلخيص سريع لحاضر الحركة العلمية المتصلة بعلم القرآن ، وذكر لأعلامها الظاهرة . . . وهي كما ترى منحصرة في مصر . أما في البلدان العربية ، فقد كانت الحركة الوهابية سبباً في يقظة علمية في الحجاز تتجه أجماعاً خاصاً . وأما في العراق فلا تزال الجهود هناك قاصرة على مصنفات الشيعة ، وقد أذاع منتدى النشر بمدينة النجف منذ ثمانى سنوات طبعة موقفة للجزء الخامس من كتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل الذى ألفه الشريف الرضى ، وقد شرحه العلامة محمد رضا آل كاشف الغطاء ، كما صدر كتاب تاريخ القرآن للأستاذ الزنجانى . ولكن هذا الجهد الحميد ، وجهوداً أخرى لا تصل الى مستواه ، لا تزال في دائرة الكشف عن التراث القديم من وجهة النظر

الشيعة . وأما ما يضيف جديداً إلى ما خلف الآباء، فهذه مرحلة لم يأت وقتها بعد . . .

وكان لتركيا أيام الخلافة جهود لا أعرف مداها ولكني لا أكاد أحس بتأثيرها ، ومن المؤسف أن هذه الجهود قد وقعت بعد الحركة الكمالية ، اللهم إلا ترجمة عاكف بك للقرآن .

وكم كنت أود أن يكون لي علم باللغة الأوردية (الهندية) ، إذن لكنت أستطيع أن أنقل صورة تقريبية عن مدى الجهود القوية التي تبذلها جمعية العلماء في لکنو ، وأساتذة جامعة عليكرة وغيرهم . . . وأذكر أني اطلعت على فهرست لكتب صدرت باللغة الاوردية ، ويتضمن هذا الفهرست أسماء عشرات من الكتب صدرت بلسان الهند عن علوم القرآن وفلسفته .. وعلى الرغم من أن الحركة العالمية الدينية في الهند أحدث عهداً من نظيرتها في مصر إلا أنها سبقتها بخطوات واسعة . . .



وإن كان لنا ما نشكو منه من فتور ، وكدت أن أقول « شلل » ، حركة التأليف المتصلة بعلوم القرآن ، حتى لتكاد الدفعة التي دفعها الأستاذ الامام محمد عبده تقف وينساها الناس . . . إلا أن نهضة الأزهر الحديثة تبشر بخير كثير ، فهذه الكليات الجديدة التي أنشئت فيه ، وهؤلاء الشباب الذين يقبلون على علوم الأزهر العالية في شغف وتطلع ، يبشرون بمستقبل فيه حياة

وفيه إنتاج نهضة العلوم الدينية ، وستكون علوم القرآن من غير شك محوراً من أهم محاور هذه النهضة . . وأمامي الآن مذكرات كلية أصول الدين عن موضوعنا هذا ، التي عنوانها « منهج الفرقان في علوم القرآن » للشيخ محمد علي سلامه ، وهي مذكرات جديرة بالثناء العظيم ، وان كنا نود أن نخلص قليلاً من بعض القيود التي تحد من آفاق البحث . . فإنما يراد من هذه الدراسات أن تكون نماذج مبتكرة لبحوث عميقة ، يفقهها الطلاب ، وتفتح أمامهم آفاقاً جديدة ، يندفعون فيها ويكملون مابداً أسانذتهم، حتى تتجدد دورة الحياة العقلية ، وحتى يكون الجيل القادم أكثر استعداداً للإنتاج من الجيل الحاضر إلا أن جودة هذه العلوم على الأزهر ، تعطينا الأمل الواسع في أن تزداد مع الزمن صقلاً ، وأن تعنى بصفة خاصة بتعرف ما كتب المستشرقون في المسائل الإسلامية ، مما سنشير إليه بعد حين . ولعل من أسباب هذا الأمل الذي نرجوه للدراسات الأزهرية ، ما نلمحه في دروس فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي من نشاط عقلي محمود خليق بأن يحتذى ، ومن حرية في التفكير ينبغي أن تتنبه لها البيئة الأزهرية . . كما أن جهود الأستاذ فريد وجدى في مجلة الأزهر خليقة بالثناء ، حقيقة بكل إعجاب .



وناحية أخرى من نواحي النشاط العقلي لم يعرف الناس عنها شيئاً يذكر الى الآن ، وهي جهود كلية الآداب في هذا الميدان . فقد أنفق

الأساتذة طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولي عشرين عاما وهم يبحثون ويدرسون في جوانب من علوم القرآن ، لا أستطيع أن أقول أنها كملت بعد حتى يقف الناس على مداها ، ولكنها أفلحت الى حد كبير جداً في توجيه عقول الشباب الجامعي الى هذه الناحية من نواحي التفكير والنشاط . ولعل كثيرين سيدهشون إذا عرفوا أن تفاسير الطبري والزمخشري والقرطبي وابن كثير والبيضاوي وغيرها من الكتب تقرأ في كلية الآداب ، وأن طلاب هذه العلوم يعرفون الشيء الكثير عن كتب : حجة الله البالغة للدهلوي ، وإرشاد الفحول للشوكاني ، وأعلام الموقعين عن رب العالمين ، ومدارج السالكين لابن القيم ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي والمواقفات للشاطبي . . وغيرها مما تكفي فيه الإشارة دون الحصر والإحصاء ! ولوزارة المعارف أيضا جهد في هذا الميدان ، هو جهد وضع البرامج لتلاميذ المدارس وتعديلها كل حين ، كما أن بعضاً من رجالها ألفوا كتباً قيمة نذكر منها كتاب قصص القرآن للأستاذ جاد المولى بك وثلاثة من المدرسين .



ذلك كله بعض ما يتصل بدراسات القرآن في العصر الحديث ، في العالم الإسلامي . . ولكن هناك ناحية أخرى عظيمة الخطر عميقة الغور هي جهود

المستشرقين التي دامت الى الآن قرابة قرنين باحثه منقبة في القرآن وفي علومه وفيما كتب عنه السلف .

لقد سبقت هذه الجهود جهودنا في العالم الاسلامي بمدة طويلة ، وانقطع كثير من العلماء ، وأنتجوا دراسات عظيمة القيمة ، لم ينتبه الى أكثرها حتى الآن . وهذه الدراسات تنقسم الى قسمين : قسم يتناول نشر النكبت القديمة وترجمتها وشرحها وعمل إحصاءات للقرآن وقواميس ، مثل قاموس فلوجل ومصحف فنسك وترجمة سيل للقرآن ، وهذه الكتب الكثيرة التي نشرت وعلى الأخص في ألمانيا من كتب الفقهاء الأقدمين . . هذا الجهد جدير بالإكبار الشديد . وأما القسم الثاني فهو ما يتناول القرآن وعلومه بالنقد والشرح . فما أكثر ما انزلت أقدام المستشرقين وما أكثر ما تنكرت للعلم وللحق ، ولكنها في بعض الأحيان سارت في طريق مستقيم ووقفت الى نتائج عظيمة القيمة ، مما سنعرض لبعضه في خلال البحث الحاضر .

هذه الجهود التي بذلها المستشرقون في اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية والإيطالية هي ما ينبغي أن تنتبه له الجامعات المصرية والأزهرية . ولعل جامعة فؤاد الأول قد بدأت تقوم بدورها ، ولكن لا بد من مضي وقت طويل قبل أن يتم نقل المفيد النافع من هذه الدراسات بشتى اللغات ، وهو شيء كثير . . كثير جداً . ومصر كمرکز لا كبر حركة ثقافية إسلامية في العالم جديرة بأن تضطلع بهذا العبء وأن تعد له عدته ورجاله .

وقد أبدت هذا الرأي مرة فاعترض عليه بعض المتزمين ، بقولهم :
ما هذا الذي يريد أن ينقل كلام « الكفار » عن القرآن إلى لغتنا ، ولنا فيما
قال السلف الصالح مايعنى ...» وهؤلاء أقول إن نقل كلام هؤلاء «الكفار»
لا يتعارض مع التوفر على دراسة ما خلف السلف . بل لقد دعوت منذ حين
في هذه المقدمة إلى العناية بهذا التراث الخالد ، وإلى الزيادة عليه ... وإنه
ليكون إنمّا ما بعده إثم أن يقول ناس عن قرآننا وديننا كلاماً بعضه خير
وبعضه شر ، فنغلق من دونه آذاننا .. ذلك لأن الخير منه يفيد ، ولأن الشر
منه يحتاج منا إلى رد . ولقد سبقنا إلى هذا الأستاذ الإمام محمد عبده ، فقد
ترجمت في أيامه مقالات وأحاديث المسيو هاناتو عن الإسلام ، فنهض للرد
عليها . وكان من مقالات هاناتو مقتبسات وقحة من كتاب باثولوجيا الإسلام
لكيمون قال فيها « ان الدعاية الحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك
بهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث
الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ويدمن على
معاقرة الخمر ويجمح في القبايح . وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبعث
الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر المستريا العامة ،
والذهول العقلي وتكرار لفظ الله إلى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب
إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبيد والموسيقى والجنون الروحاني

والليمانيا أو المايلخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ . الخ « (١)

وكان رد الشيخ محمد عبده على هذه القحة مثيراً لدوى كبير في الشرق والغرب مما اضطر الوزير الفرنسي هاناتو الى أن يكتب في جريدة الجورنال الفرنسية مقالا اعتذر فيه عما بدر منه ، ووجه القول للإمام هكذا : « ولذلك أرى أن ذلك الإمام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته في الأصل الفرنسي أو وقف عليه من الترجمة . إمامه لم يفهم مرادى وإمام أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الأمانة . لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأترون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتى وكلها احترام واعتدال ومسألة وتوفيق »

ولم يقل أحد ان هذا الجدل الذي قام بين الإمام محمد عبده وبين هذه الطائفة المتحدثة عن الإسلام بغير الحق انقص من إيمان مؤمن ، أو جرح عقيدة معتقد . بل على العكس . . ان ترك الافتراء كما هو دون دحض يقيم من شأنه ويبقى عليه . . فاذا قدرنا أن ليس كل ما يكتب الأوربيون عن القرآن شراً ، وان فيه جانباً جزيل النفع غزير الفائدة ، فلامعنى إذن لأن تلبس الحركة الفكرية قميص الكتاف ، فالاسلام بخير ، وما تقدمت علومه

(١) ص ٣٩٠ ج ٢ تاريخ الامام

وما رسخت قواعد هذه العلوم في عصر العباسيين إلا بعد أن اتصلت بآثار
الفكر الغربي ، وأخذت عنه . . ثم عاد الفكر الغربي يأخذ عنا ، ويستضيء
بضياننا . .

إن القرآن بخير ، وسيظل كذلك ، فقد أنزله الله هدى للعالمين ، وقال
تباركت أسماؤه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »



وبعد

فقد كنت مضطراً لأن أعرض هنا طائفة من الآراء قد لا أجد لها مكاناً
في خلال البحث القادم ، ولذا طالت المقدمة عما قدرت لها ، فعدرة . .
وإني أسأل الله أن يوفقنا إلى إتمام هذا البحث الذي قد يستغرق جزئين
أو أكثر من أجزاء كتاب الشهر ، وأن يكون جهدنا فيه فاتحة جهود
أقوم . . فلا يزال الطريق وعمراً ، ولا يزال مجال العمل فسيحاً يتسع لجهود
لا انتهاء لها ما

الفاهرة في { ٩ شوال سنة ١٣٥٨
٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٩

صبيح

صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ

الدنيا كلها نائمة ، ومكة من هذا الوجود تنام كذلك نوماً ثقيلاً يسمع له غطيط ، فقد أنفتحت يومها في هذا العيب الذي تقضى فيه نهارها كله وصدرها من ليلاها ، تسمر وتشعر وتضحك وترقص . . وهذه الأصنام البله تطل عليها من أركان البيت العتيق ، لا تدرى لِمَ شدّوها في مكانها ، ولِمَ يطيفون بها يرقصون ويقفزون عمارة حيناً ، ومكتسبين حيناً آخر ، كأنما بهم جنّة . . وما بهم من جنّة إلا أنه الفراغ في الوقت ، والفراغ في النفس ، والفراغ في الرأس ، يزين كثيراً من الهزل على أنه جد ووقار .

دنا وقت الفجر ، وأحس الكون لنسائمه الباردة برجة خفيفة ، فأجاد النائمون في مكة إحكام الغطاء عليهم ، إلا أن عيناً في بيت من بيوت هذه القرية لم يزرها الغمض إلا لماماً ، فقد ألحت على صاحبها نداءات النفس وهواتف الضمير تدعوه الى اليقظة فقد آن وقت الرحيل . .

وتسلل رب هذا البيت من فراشه خفيفاً وثيداً ، حتى لا تستيقظ زوجته النائمة بجواره ، وأحكم الغطاء حولها ، ثم سار حذراً لا يسمع له حس كأنه

الطيب ، والتمس في مكان قريب حقيبة كان قد أنفق قسماً من نهساره في إعدادها ، تعاونه زوجه . .

حمل حقيبته ، وهم بالخروج ، ولكنه لم ينس أن يلقي نظرة كلها حب وكلها إعزاز على صاحبته التي يغادرها حيث كان ينام ، ثم تحسس طريقه ، وغادر البيت . ولو أنه التفت وراه ، وهو يفصل عن الدار ، اذن لرأى هذه التي ظنها غارقة في نوم عميق قد رفعت العطاء عن رأسها ، وشملتة بنظرة فيها كل ما يمكن للنفس الرحيمة المحبة أن تحمل من عاطفة كريمة . وكم كان بود خديجة أن تنهض في هذه الساعة المبكرة تودع زوجها ، وتعاونه على حمل متاعه ولكنها رأت في كل مرة خرج فيها هذا الخروج أنه يكون أكثر اغتباطاً إذا هي أعفته من مشقة وداعها ، فأثرت أن تتظاهر بالنوم وما هي بنائمة ، وآثرت أن تلتزم الصمت وبودها لو تكلمت وقالت لصاحبها الكثير مما بنفسها . .

انطلق محمد في هذه الساعة المبكرة يحمل حقيبته حتى جاز مكة ، وصعد في طريق سهل أوله ، ثم يأخذ في الالتواء وفي الضيق وفي الارتفاع ، ولكنه مع هذا لم يحس بمشقة في السير ولا في التصعيد ، فقد قطع الطريق مرات ، ومرات قبل هذه المرة ، وإن به لشوقاً الى مكان يؤثره على غيره من الأمكنة كلها ، وإن به لهوى إلى هذا الغار الذي يقطع في الوصول إليه من مكة ثلاثة أميال ، وكأنها ثلاثة أشبار . ويصعد إلى سفح الجبل مستعيناً بالصخرة الناتئة حتى إذا وصل ، ألقى عن عاتقه الحقيبة في رفق وأطل من فم الغار إلى هذا

الوجود المنبسط تحت قدميه فيرى الصحراء وقد بدأت عيون الفجر ترنو إليها فتبعث على وجهها ضوءاً خفيفاً يزيدا رهبة وفتنة . . ويستنشق محمد نفساً طويلاً كأنما يريد أن يسكب في نفسه ما يحيط به نظره من جمال وجلال .
وإنه ليدير بصره حوله ، حتى إذا وقع على مكة في غطيها انقبضت نفسه ، فطالما أحس بالضيق الشديد في هذه الساعات وهذه الأيام التي أنفقا فيها . ولطالما سخط على ما كان أهلها يفرقون فيه من عبث وجهالة ومنكر فادح . . ولطالما عذبه الشك وأرقه الليالي الطويلة وهو يفكر في شؤون قومه ، فلا يراهم يتهبون من ضلال إلا ليصلوه بضلال جديد . . . ولم تكن في مكة نقطة تستريح لها نفسه إلا هذا البيت الذي يأوى إليه وتعمره زوجته خديجة بحنائها ومحبتها . . لطالما فرّ من مجون قومه الذي كان يجرح عقله وقلبه إلى صدرها يبثها شكواه فتمسح أحزانه بيديها الرحيمة ، وتأخذ في سرد هذه القصص التي كانت تسمعها من ابن عمها ورقة بن نوفل الذي غادر الحجاز مع صاحب له ^(١) وطوف ببلاد النصرانية في الشمال ، وسمع عن الأحبار ، وأخذ عنهم وكتب من إنجيلهم .

أنفق محمد وقتاً غير قصير وهو في مكانه الرفيع حتى غمر الكون ضوء الفجر الأبيض ، وكادت الشمس تبين من وراء الأفق البعيد ، فأنشئ إلى مكانه ، فوقع نظره على حتميته ، فأقبل عليها يخرج ما بها من طعام .

(١) زيد بن عمرو بن نفيل .

ولم يكن طعام الناس في هذه البقاع يتجاوز الخبز وأدماً من اللبن واللحم
والتمر . .

قال الرواة . . لا ندرى كم يوماً أنفق محمد في هذه المرة التي خرج فيها
إلى غار حراء يتحنث . ولكنه على كل حال لم يزد مرة على شهر من الزمان
فإن الطعام الذي يحمل ما كان ليكفيه أكثر من هذا الشهر ، ثم انه كان
بحاجة إلى أن يرى زوجه . وأن يعلم أنباء قومه . .

وقال العلماء : لا ندرى أكان يتعبد في مقامه بالغار على شريعة أم كان
يتعبد على غير شريعة . . . فإن كانت الأولى فبشريعة من كان قبله من
الأنبياء : شريعة إبراهيم ومن جاء بعده من الرسل

ولكن ما حاجتنا إلى أن يختلف العلماء في هذه العبادة وعلى أي الطقوس
كانت تسير . . وهل كان محمد ، وقد وهبه الله العقل الراجح ، الذي يزن
الوجود كله ، بحاجة إلى علم خاص ليعلم عن طريقه ما يريد أن يعلم . . لقد
فتح الكون أمامه - وهو في مقامه بالغار - كتابه كله ، وعرض عليه صفحته
وترك له أن يقرأ ما يشاء . . فقرأ عن عظمة هذا الكون ما ملأ نفسه إكباراً
ورهبه وشوقاً إلى معرفة منشئه ، وهدته فطرته السليمة إلى أن مبدع هذا
الجمال وهذا الوجود الذي يمتد تحت قدميه أرضاً تقوم عليها الجبال وتنبسط
فيها السهول منها ما يزرع ومنها ما تغمره الرمال ، ومنها ما تشقه الأنهار . . هذا
الوجود الذي يرتفع فوق ناظريه فإذا هو سماء تكاثرت فيها النجوم التي

لا يحصيها عدد ، وتقاطرت عليها الكواكب التي تسبح من هذا الأفق إلى ذلك ومنها القمر المضيء ، ومنها الشمس ذات الدفء والذهب . . . أقول هدته الفطرة إلى أن مبدع هذا الكون وهذه بعض آياته ، لا بد أن يكون إلهاً أسمى كالأمن هذه الأحجار التي ينظر إليها قومه عابدين وهي لا تعز ولا تنزل ولا تفيد .

لقد امتلأت نفس محمد في خلواته هذه الطويلة المتكررة في الغار بمعنى ظل حبيسا ، يتردد في صدره ولكنه يضغط عليه . وامتلاً عقله بأراء وبوده أن يخرجها للناس كلاماً ولكنه يحس بأن الوقت لم يجئ لكي يذيع ما هداه إليه تفكيره ، وما تفتح له فؤاده .

حجبت الغشاوة أعين الناس جميعاً ، في هذه القرية وفي غيرها من القرى إلا أن شخصاً واحداً ارتفعت عن عينيه الغشاوة . فرأى وبهره ما رأى ، وشاهد فكان ما شاهده جليلاً رائعاً . . . وكان هذا الشخص هو محمد بن عبد الله . . .



وحدث ذات مرة . . .

حدث ، ومحمد يتفق وقته في الغار ، وقد تحركت في نفسه كل القوى ، وأحس بأنه في أمس الحاجة إلى أن يتكلم ، وأن يفصح . . . رأى أن يستريح قليلاً فأدركته سنة خفيفة من النوم قبل أن يعود إلى بيته . . . وأحس بأن

الغار قد زاد سكوتنا على سكونه ، وان شيئاً جديداً حدث فيه أو يوشك أن يحدث ، وتطلع حوله في دهشة فلم ير شيئاً ، فعاد إلى فراشه وأدركته سنة النوم من جديد ، ولكنه سمع صوتاً كأنما يأتي من بعيد .. من أقصى مكان يتخيله الإنسان لما فيه من عمق وما فيه من رهبة ولكنه كان واضحاً مسموعاً لديه ، كأنما ينطق لينقش على هذا الصخر من شدة نفوذه وتأثيره ..

قال له الصوت :

— اقرأ ..

فنظر النبي في منامه فإذا شيء يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئاً .. فقال في صوت به رجفة :

— ما اقرأ ..

وطاف بذهن محمد أنه الموت قد أقبل ، وأن الساعة قد دنت . فأغمض عينيه يستقبل قضاء الله . ولكنه أحس بكأن يحيطه ويضغطه ضغطاً شديداً ثم يعود فيقول له بنفس الصوت ، ولكن أكثر وضوحاً ونفوذاً

— اقرأ ..

فيجيب محمد على مجل .

— ما اقرأ ..

فيعود الكائن صاحب الصوت إلى ضغطه بنفس الشدة ، حتى لكأنها كربة الموت تطيف بالبدن . ويعود الصوت مردداً .

— اقرأ ..

فيتكرر الجواب ويتكرر العمل وفي المرة الثالثة يجيب محمد :

— ماذا اقرأ .. وهو يهمس في نفسه : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن

يعود لي بمثل ما صنع بي .

فيقول له الصوت :

« اقرأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرأُ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .. »

فردد محمد هذه الألفاظ على عجل : وانصرف عنه هذا الطارق الذي ألم به

في نومه . فهب من فراشه ينظر حوله فلا يرى شيئاً ، ولكنه يذكر ما كان

فيه منذ لحظة فإذا هو واضح في نفسه كأنما كان في أتم يقظته ... روى عن

نفسه فقال : « فانصرف عني . وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي

كتاباً . فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من

السماء يقول :

يا محمد . أنت رسول الله . وأنا جبريل . فرفعت رأسي إلى السماء أنظر

فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء .

يقول : يا محمد . أنت رسول الله ، وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما

أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في

ناحية منها إلا رأيته كذلك : فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورأني حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي .. »



تري ما شأن هذا الذي ألم به ، ومن جبريل الذي ناداه ، وأسماه رسول الله ..

ان محمداً عليه السلام ليسير مع خدمه إلى خديجة ، ويذكر أنه لم يناده مناد قبل يومه هذا يجهل طبيعته وكنهه إلا مرة واحدة . فقد حدث وقريش تبني الكعبة أن كان يشترك معهم في نقل أحجارها من أجياد ، وكان رفيقه في عمله عمه العباس . وكان من عادة القوم أن يضع الواحد منهم ازاره على عاتقه ليحمل عليه الحجارة . فما أن رفع عليه السلام ازاره حتى عثر وسقط على الأرض وسمع صوتا يناديه من بعيد أن يسبل ازاره ففعل ونهض وهو في دهشة من أمره وحمل الحجر على عاتقه من غير وقاء فنبهه عمه إلى ما يصنع ولكنه أبي أن يرفع الإزار بعد أن سمع هذا الهاتف من بعيد^(١) .

هذه هي المرة الوحيدة التي سمع فيها صوتا مجهولا يخاطبه . ولكنه كان في تلك المرة شيئاً لا يستوقف النظر؛ أما الآن فقد اقترن الصوت بعمل ، وهذا

(١) البرقاني على المواهب ص ٢٠٦ ج ١

هو يحفظ ما أمره الصوت أن يقرأ ، وهذا هو يردده بلسانه ، « اقرأ باسم
رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

كان رسول الله يسير إلى بيته ومن حوله الخدم لا يحس بهم ولا يحس
بهذه الأميال الثلاثة التي يقطعها . لقد كان غائبا وهو معهم . وكانت أصوات
الملك الذي أسمى جبريل تسد عليه أقطار نفسه ، وتصرفه عن التفكير
في كل شيء غيرها ..

وما ان وصل إلى بيته حتى ألقى بنفسه في حجر زوجته خديجة ملتصقا بها
وأنفاسه تتردد في صدره على عجل ، وهي في دهشة من أمره . فلقد خرج
قبل اليوم مرات ، ولقد أنفق من الوقت في حراء مثل ما أنفق هذه المرة ،
ولكنه كان يعود لها مشرق الوجه ضاحك الثغر ..

تري ما بك يا محمد .. وهل ألم بك حادث جليل ؟ !

أخذت خديجة تخاطب زوجها حتى تنبه لها وأفاق . قالت له في صوت

رحيم يسيل رقة وعذوبة :

— يا أبا القاسم ! فنظر إليها .. فرددت :

— أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة

ورجعوا إلى ..

فأخذ يحدثها ، يحدثها بما سمع وما رأى ، ويتلو عليها الآية التي نقتت في ذهنه ، وكان عليه السلام يطالع في صفحة وجهها الاطمئنان له والفرح به ، فيعود إليه هذوؤه ، فلما انتهى من قصته قالت له :

— أبشريا ابن عم ، واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ..

ولم تتمهل خديجة ، فأشارت على زوجها بأن يستريح فهي خارجة إلى بعض شأنها ولا تلبث أن تعود . وجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة ابن نوفل قرييها ، الذي تنصروقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما رآه صاحبها ، وما سمعه . وكان ورقة يصغى إليها في عجب فلما انتهت من قصتها هتف بأعلى صوته ، وهو الشيخ العجوز الذي ضاع بصره . — قدوس .. قدوس .. والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة . فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة على عجل إلى زوجها متلهلة الوجه فرحة ، وأخبرته بما سمعت من قرييها فحمد ربه حمداً طويلاً . وخرج بدوره يطوف بالكعبة .. وبينما هو في طوافه لقي الشيخ ورقة ، فحدثه وسمع منه .



وكان رسول الله يوم نزل عليه القرآن في الأربعين من عمره على أرجح

الأقوال^(١) وكان أول نزول الوحي في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان وقيل لسبع وقيل لأربع وعشرين . وعند ابن عبد البر والمسعودي بعث يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل .

وان اختلف في تحديد يوم نزول القرآن فهناك اتفاق تام على أنه كان في يوم الاثنين ، وأن الشهر كان شهر رمضان ..

روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي سئل عن صوم الاثنين فقال : فيه ولدت وفيه أنزل عليّ .

وقال ابن اسحق . فابتدى رسول الله بالتنزيل في شهر رمضان . يقول الله عز وجل « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ نُهْدَى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .

وقال تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

(١) هذا ما رواه ابن عباس وأنس في الصحيحين . ولكن الواقدي قال وهو في الثالثة والأربعين . وفي تاريخ يعقوب عن مكحول أن القرآن نزل والنبي في الثانية والأربعين . وبنا يكثر الخلاف حول المدة التي أقامها النبي بمكة بعد البعثة فهي من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، ولكن القول الراجح أنها ثلاث عشرة سنة .

وقال تعالى : « حَمِّ . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ » .

وقال تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ التَّلَافِي الْجُمُعَانِ » .. وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين
ببدر . وكان لقاء بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان ..



هكذا نزل الوحي على رسول الله ، وانطلق لسانه بالقرآن الكريم ..
ولقد سبقت الوحي فترة من الزمن ممهدة له ، هي فترة الرؤيا الصادقة ، وذلك
أن رسول الله كان يرى في منامه أشياء تصدق في عامة يومه . روت عائشة
أم المؤمنين . أول ما بدى به من الوحي الرؤيا الصالحة . وذكر البيهقي أن
مدتها ستة أشهر ...

ويفهم من حديث الرؤيا الصادقة أن رسول الله كان قد وصل نفسيا إلى
درجة من الشفافية تسمح للوحي بأن ينزل عليه ، وأن يلقنه القرآن فيحفظه
من فوره .. أو كما ذكر رسول الله في حديثه (كأنما كتبت على قلبي كتابا)
إذ أن سرعة الفهم وسرعة الحفظ لا بد أن تكون شرطا أساسيا لنقل كلام الله ،
ولتلقينه للناس ...



وقد ألفت المتصوفة الانجليزية أنى بيزانت Annie Besnt محاضرة في الهند عن رسول الله ، عرضت فيها لهذه الفترة من حياة النبي السابقة لنزول الوحي بقولها :

« بينما كانت حياة محمد الداخلية على هذه الحال من النفع والطيبة والمعونة أتدري ماذا كان عليه في حياته الباطنية ؟ . آه .. من ذا الذي يستطيع أن يصف تلك الأعاصير من الهم والكمد التي كان يكافحها هذا النبي المقبل ، ويبعدها عنه في الصحراء المحيطة به ، التي كان ينازع فيها نفسه بنفسه ؟ من ذا الذي يستطيع أن يصف واحدة من هذه المعارك الباطنية التي لا يعرفها إلا الرجال المخصوصون بالوحي الالهي ؟ فكان محمد ، وقلبه مجال هذه المعارك ، يفرع إلى الصحراء كلما اشتدت حملتها عليه ، وظل على هذه الحال الشهور تليها الشهور ، حتى بلغت خمس عشرة سنة . فكان يأوى إلى غار في وسط الصحراء وحيدا ساكنا متأملا راجيا الله . والشك المرير في نفسه يحيق به ، سائلا نفسه عن معنى الرسالة التي كان يتوقعها حتى سمع صوتا يناديه : اقرأ باسم ربك .. فأجابه (ما أنا بقارئ !!) أنتسكلم وهو عرضة لتيارات الشكوك والهموم ..

« مضت على محمد في هذه الحال خمس عشرة سنة ، وهي حال من الكفاح والنزاع لا يقدرها حق قدرها إلا الأقولون .

« ولكن حدث ذات ليلة صافية الأديم ، أنه بينما كان مستلقياً على الأرض غارقاً في همومه وآلامه ، أن غشيه نور نزل إليه من السماء . وإذا بملك كريم واقف أمامه يدعوهُ الى النهوض ليبلغ رسالة الله للناس . وأخذ يعلمه ما ينبغي عليه أن يعلم . .

« فهذا الرجل الذي كان أشد الناس اعتزلاً للناس أصبح مصدر حياة أمة برمتها . وقد أمر أن يذهب إليها بنفسه ، وأن يختلط بها ويكلمها باسم مولاه . باسم الله . .

« وهرع إلى زوجته خديجة يقص عليها قصته ، فأجابته بصوتها الهادئ المتزن بما قوى عزيمته وثبت إيمانه . وقد نهض من عند خديجة وهو شاعر بأنه غير ما كان عليه في أمسه . . بأنه ليس رجلاً من عامة الناس ، ولكنه نبي سيجعل من بلاد العرب مملكة منظمة ، ودولة مهيبة يحمل خلفاؤه عليها إلى أوربا مشكاة العلم بعد أن انطفأت فيها . وانهم سيؤسسون امبراطوريات قوية ، وانهم سيقومون أمام الله بعبادات قوية ليس لها نظير في أي دين آخر» . ثم تستأنف بيزانات محاضرتها قائلة :

« نعم فانه لحق على هؤلاء الذين لا يتبعون دين هذا النبي العربي أن يتقوا من أن ليس بين الأديان البشرية دين يوحى إلى معتنقه عقيدة أشد صحة ولا أكثر تعلقاً بنفس صاحبها من الدين الذي نطق به النبي العربي .

« وإذا صح ما يقول الفيلسوف بين ، من أن العقيدة تثبت صحتها بسيرة أهلها ، فتأمل في المسلمين ، وانظر كيف تتحكم أقوال محمد الى اليوم في أعمال الناس . .

« لا يوجد مسلم في الأرض ينجل من السجود في الصلاة وان كان حوله حشد من الساخرين الذين يكرهون الاسلام ونبيه . انظر الى أى حد قهرت عقيدة الاسلام كل شعور بالخوف من الموت عند المسلمين . فأين تصادف بطولة مثل بطولة هؤلاء (الدراويش) الافريقيين الذين اقتحموا ميداناً سلطت عليه بنادق كابلنج ، ووقفوا صفاً بعد صف قبل أن يصلوا الى أعدائهم سائرين إلى الموت ، كما يسير غيرهم الى خطيباتهم من النساء . كل ذلك محبة لنبينهم ومرضاة لله ؟ »



الروهي

عن ابن اسحق عن خديجة أم المؤمنين :

قالت لرسول الله :

— أي ابن عم . . . استطيع أن تخبرني بصاحبك هذا « جبريل »

الذي يأتيك إذا جاءك ؟ .

فقال لها محمد عليه الصلاة والسلام :

— نعم . . . فقالت :

— فإذا جاءك فأخبرني به . . . فجاءه جبريل عليه السلام كما كان

يصنع . فقال رسول الله لخديجة :

— يا خديجة . هذا جبريل قد جاءني . . . قالت :

— قم يا ابن عم فاجلس على نخذي اليسرى

فقام رسول الله فجلس عليها . . . قالت :

— هل تراه . . . قال :

— نعم . . قالت :

— فتحول فاجلس على نخذى اليمى .

فتحول النبي فجلس على نخذا اليمى فقالت :

— هل تراه ؟ . . قال :

— نعم . . قالت :

— فتحول فاجلس فى حجرى .

فتحول رسول الله فجلس فى حجرها . . قالت :

— هل تراه الآن . . قال : نعم .

فتحسرت ، وألقت خمارها ورسول الله جالس عليها فى حجرها . . ثم

قالت له : هل تراه . . قال : لا . . قالت :

— يا ابن العم اثبت وابشر . فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

ولعل خديجة كانت قد سمعت من قريبها ورقة بن نوفل بعض ما يعلم

عن شئون الوحى ، فأرادت أن تختبر ووحى رسول الله ، بأن عرضت نفسها

فى حالة خاصة فزالت الصورة التى كان يراها النبى .

ويفهم من مراجعة السيرة النبوية أنه كانت للوحى حالات .

منها أنه كان يأتى كالرؤيا فى المنام . وقد سبق لإبراهيم عليه السلام أن

رأى فى منامه أنه يذبح ابنه فصدق ما رأى وهم بتنفيذه . وكان أول نزول

الوحي على رسول الله في غار حراء ، وتلقيته سورة القلم ، رؤيا ؛ لأنه كان في سنة من النوم .

والصورة الثانية للوحي ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه .. وهذا يفهم من معنى الكلمة اللغوي ، إذ أنها تدل على الاعلام في خفاء وسرعة . وفي هذه الحال كان النبي لا يرى شيئاً ، ولكن كان يحس أن معنى جديداً وعاه قلبه في صورة مخصوصة . وكان عليه السلام يقول: إن روح القدس نفث في روعي: «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» .. والروع في هذا الحديث معناه النفس ، وروح القدس هو جبريل .

والصورة الثالثة من صور الوحي أن يظهر له الملك في هيئة رجل يخاطبه حتى يعي النبي عنه ما يقول . وكان كثيراً ما يأتي في صورة دحية الكلبي^(١) ونزول الوحي في صورة هذا الصحابي كان بعد الهجرة ، إذ أن دحية لم يسلم إلا بعد بدر . ومما يذكّر أن دحية هذا كان رجلاً وسياً جميل الصورة وقد اختاره النبي لأحد سفاراته إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام .

والحالة الرابعة التي كان يأتي فيها الوحي للنبي مثل صلصلة الجرس . وكانت هذه الحالة أشد ما يعانیه النبي حتى أن جبينه كان يتفصد عرقاً في

(١) دحية كلمة بلغة حمير معناها رئيس الجند . واسم هذا الصحابي دحية بن خليفة بن فضالة بن فروة من قبيلة كلب .

اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به في الأرض . ولقد جاءه الوحي كذلك ونغذه على فخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترضها . . . وروى عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا نزل أخذته برحاء (آلام تشبه الحمى) شديدة ، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ، ثم سرى عنه . وكنت أكتب وهو يملئ على فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر من ثقل الوحي حتى أقول لا أمشي على رجلى أبداً . ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته .

وعن عمر بن الخطاب كان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي سمع عنده دوى كدوى النحل .

وعن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال النبي أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتمعد عرقاً .

والحالة الخامسة التي روى أن الوحي ظهر فيها ، هي أن يرى النبي جبريل في صورته التي خلق عليها . وقد استدلل على هذه الرؤية بما ورد في

سورة النجم « ولقد رآه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى » .
وقد أورد ابن القيم حالتين للوحي غير ما ذكر ، هما التخاطب المباشر كما
كلم الله موسى ، والأخرى ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض
الصلوات وغيرها ولم تر فيها بين أيدينا من مراجع ما يؤكد حالة التخاطب
المباشر . والحالة التي تليها يمكن أن تفهم مما سبق أن ذكرنا ...



ولقد ورد ذكر جبريل في القرآن في سورة البقرة .
« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » .

وذكر الزمخشري في كشافه وهو يتحدث عن هاتين الآيتين .
روى أن عبد الله بن سوريا من أحبار فدك « اليهود » حاج رسول الله
صلى الله عليه وسلم وسأله عن يهبط عليه بالوحي فقال جبريل ، فقال ذلك عدونا
ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا ، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن
بيت المقدس سيخر به بختنصر فبعثنا من يقتله ، فلقمه ببابل غلاما مسكينا ، فدفع
عنه جبريل وقال: ان كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، وان
لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونه .

وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدراس (كنيس) لليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنا لنقطع فيك . فقال والله ما أحييتكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شك فى دينى . وإنما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم . ثم سأله عن جبريل فقالوا ذلك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب . وأن ميكائيل يجيئ بالخصب والسلام . فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى ؟ . قالوا أقرب منزلة : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره . وميكائيل عدو لجبريل . فقال عمر لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأتم أ كفر^(١) من الحمير . ومن كان عدوا لأحدهما كان عدواً للآخر . ومن كان عدوا لهما كان عدواً لله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال النبي عليه السلام « لقد وافقتك ربك يا عمر . فقال عمر لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر » .



وورد ذكر الوحي فى القرآن مرارا تبعاً لجدال اليهود والكفار فى حقيقة

مصدر القرآن ، فمن هذا ما ورد فى سورة الشورى :

(١) لو أن الرواية قالت « أجهل » من الحمير ، لناسبت الحال .

« وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .
وفي هذه الآية ذكر لأوجه ثلاثة يخاطب بها الله البشر . وروى أن اليهود قالت للنبي ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي لم ينظر موسى إلى الله ، ونزلت هذه الآية مسجلة هذا الحوار . وعن عائشة : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . ثم قالت أو لم تسمعوا ربكم يقول : وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ ..

وورد في القرآن في أكثر من موضع جدال عن الوحي وعن طريقه من ذلك : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ^(١) »
وفي هذه الآية ما يؤيد أن الوحي كان ينزل على صورة رجل لا يعلم حقيقة أمره إلا النبي .

وفي سورة الأنعام ذكر لما كان يفتره بعض العرب من أن وحيا ينزل عليهم « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ عَلَيْهِمْ »

(١) الأنعام .

إليه شيء . ومن قال سأُنزِلُ مثل ما أنزل الله . ولو ترى إذ الظالمون في
 غمرات الموت والملائكة باسِطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم . اليوم مُجْزَوْنَ
 عَذَابَ الْهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته
 تستكبرون .

كما أن سورة النجم عرضت لهيئة الوحي إذ ذكرت :

« والنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
 الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ (قوة)
 فَاسْتَوَى ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
 أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ، أَفَتُارَوْنَهُ
 عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ
 الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى
 مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .. »

ويقول المفسرون في هذه السورة إن النبي عليه السلام رأى جبريل
 على صورته الحقيقية مرتين إحداهما عند البعثة والثانية عند الاسراء . أو إحداهما
 في أحياد والثانية وهو خارج . أو إحداهما عندما فتر عنه الوحي ثلاث سنين
 أو نحوها وهم أن يتدلى من قم الجبال فمنعه وطمانه على أنه نبي مرسل ..

ويذكر المفسرون روايات على أن الرؤية كانت بالعين ، ويصفون
جبريل على أن له ستائة جناح .. الخ .. ولكن التأمل في هذه الآيات
يدل على أن الرؤية كانت بالإلهام بدليل قوله « ما كذَّبَ الفُؤَادُ ما رَأَى » .
ورؤية الفؤاد غير رؤية العين بطبيعة الحال .



في ثلاث سنين

قارى سيرة النبي في جميع مراجعها يثق من أن أول ما نزل من القرآن هو سورة « اقرأ . . . » كما أسلفنا . إلا أننا مع هذا نجد أقوالاً منسوبة لثقة من رواة الحديث وأصحاب الفقه والصحبة لرسول الله يذكرون قصصاً أخرى .

فمن هذا ما رواه كتاب الانتان للسيوطي عن جابر أنه سئل : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : **يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ** . فقال له سائله : أو اقرأ باسم ربك . فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله قال : إني جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي و خلفي وعن يميني وشمالى ، ثم نظرت إلى السماء ، فإذا هو (يعنى جبريل) فأخذتني رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله : **يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ** . .

وعن جابر أيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت

برأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ،
فرجعت فقلت زملوني زملوني فدثروني . فأنزل الله يأيها المدثر .

وظاهر من هذه الرواية الثانية أن الوحي نزل أول ما نزل بحراء ، وكانت
آية القراءة . ثم نزل مرة أخرى ففرع النبي وأوى إلى فراشه ، فأوحى إليه :
« يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ
فَأَهْجِرْ (الرجز الأصنام) . وَلَا تَمُنْ بِتَسْكَرٍ ، وَرَبَّكَ فَاصْبِرْ ، فَإِذَا
نَقَرَ فِي النَّاقُورِ (نفخ في البوق) . فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَيْرٌ يُسِيرُ . »

ولكن ابن كثير ينقل عن البخاري روايات جابر السابقة ثم يعقب
عليها برواية عن ابن عباس يقول فيها : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً
فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال
بعضهم ليس بساحر . وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن . وقال
بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر . وقال بعضهم بل سحرٌ يُؤَثِّرُ .
فأجمع رأيهم على أنه سحرٌ يُؤَثِّرُ . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرن
ووقع رأسه وتدثر . فأنزل الله تعالى : يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ .

إلا أن ابن كثير في تفسيره يختار سورة اقرأ ، على أنها أول ما نزل من
القرآن ، وهذا هو القول الراجح . إلا أن هذه السورة لم تنزل كلها ، وإنما
نزلت منها آياتها الأولى أما بقية السورة فنزلت بعد .

أما سورة المدثر فقد نزلت كلها مرة واحدة ، فكانت أول سورة نزلت كاملة .



بعد هذا الأمر الصريح الذى جاء به الوحي أن يقوم فينذر عشيرته الأقرين ، فتر الوحي ، ولم يعد رسول الله يلقاه .

ذكر ابن إسحاق أن مدة انقطاع الوحي كانت ثلاث سنين . وفي قول أن المدة سنتان ونصف . وفي قول ثالث أنها كانت أربعين يوماً ، وفي قول رابع أنها كانت خمسة عشر يوماً . وفي قول خامس أنها كانت ثلاثة أيام .

ونحن نجد هذا الاختلاف بين الرواة فى كثير من التفاصيل التى تتصل بسيرة النبي فى مدة مقامه بمكة . فقد أنفق عليه السلام ثلاثة عشر عاماً ، لا يكاد التاريخ الصحيح يقف من أحداثها الثابتة إلا على النزر اليسير . ولعل أشد الفترات غموضاً هى فترة انقطاع الوحي التى اختلف فيها القول على النحو الذى ذكرنا ، وفترة الحصار الاقتصادى الذى فرضته قريش على بيت هاشم والذى استمر فيما يقال ثلاث سنين .

ومرجع هذا الغموض فى سيرة النبي قبل الهجرة ، أن معتنقى الاسلام وقتها كانوا قلة قليلة ، وأن صوت الشرك هو الذى ظل مرتفعاً . فلم تحوذا كربة .

الصحابة الذين أسلم قليل منهم في مكة، أحداث الأذى والمتاعب التي صادفها النبي وعلى الأخص هذه الأزمات النفسية الحادة التي كانت تعتريه .

ولقد قيل إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه ، وأنه كان يهيم على وجهه في الصحراء يناجى ربه ، وبلغ به الأمر مرة أن همَّ بالقاء نفسه من قمة جبل شاهق . ويذكرون من أسباب انقطاع الوحي عنه أن يذهب عنه ما كان يجده من الروع ، وليحصل له الشوق إلى العود .

وقد انتهت هذه المحنة الشديدة بنزول سورة الضحى التي تصف هذه الأزمة النفسية .

(وَالضُّحَى
إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا
فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ .
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وفي هذه السورة يقول الله لرسوله إنه لم يودعه ولم يهجره . ويذكره بنعم الله عليه من أيوائه وكان يتيمًا، وهدايته وكان ضالا ، واغناؤه وكان فقيرا . وازاء هذه النعم يطلب الله من رسوله أن يبر اليتم والسائل، وأن يتحدث بنعمة ربه عليه .

ويفهم من الظرف الذى نزلت فيه هذه السورة ، أنها كانت السورة
الثالثة فى العام الثالث من البعثة ، أى حين كان سن النبى ثلاثة وأربعين
عاما أو نحوها .

ثم تتابع نزول القرآن حسب الحوادث ، ولم ينقطع الوحي ، ولم يفتر
طويلا الا هذه المرة .



الفرآن وقریش

بدأ رسول الله تبليغ دعوته في العام الرابع للهجرة بقوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وقوله « وأنذر عشيرتک الاقربین واخفص جناحک لمن اتبعک من المؤمنین ، فإن عصوك فقل إني بري بما تعملون » .

فانكرت عليه قریش رسالته ونبوته ، ونصبت نفسها لايدائه وحر به . ولم يكن لرسول الله من سلاح يستعين به مدة مقامه بمكة ، أى طوال ثلاثة عشر عاما غير القرآن الكريم ، يتلوه على قریش فتحيط بقلوبهم أغلفة غلاظ حتى لا ينفذ إليها تأثيره . ومع ذلك فقد كان نفوذ القرآن أقوى من عناد قریش . .

كان سادتها يجتمعون كثيراً ، ويطيلون البحث والجدال في شأن النبي وفي شأن هذا القرآن الذى ينزل عليه . .

تساوروا مرة ، وأخذوا يديرون القول فيما بينهم : فأحدهم يقول سحر ،
والثاني يقول لا : هو شعر . ويقول ثالثهم ما هو بسحر ولا شعر ولكن
كهانة . . فيقول لهم شيخهم الوليد بن المغيرة : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن
أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه
باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق
به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء
وعشيرته . .

وكان موسم الحج قد أقبل ، وتهايا النبي لدعوة وفود العرب إلى الاسلام
وإسماعهم القرآن . فتربصت قريش به ، فما ذهب إلى مكان إلا أحاطوا به ،
وحذروا الناس من الاستماع « لسحره » . ولقد أغضب هذا العمل النبي ،
ونزل قرآن فيه تعنيف شديد للوليد بن المغيرة .

« ذَرْنِي وَمَنْ حَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ، وَبَيْنَ شُهُودًا ،
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا .
سَأَرْهُقَهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . »
إلى آخر السورة .

ولكن هذا الحصار الذي ضربته قريش على دعوة النبي ، وهذا الإنذار
الذي وجهته قريش لكبرائها .. كل اولئك لفت نظر وفود شبه الجزيرة إلى

رسول الله وحرصوا على أن يعلموا من أمره بدافع الفضول كل شيء . وبذا ذاع ذكره ، وانتشر أمره ، على السنة هذه الوفود بين قبائل العرب جميعاً



وأدركت قریش أن أساليبها في صد الدعوة الإسلامية عن المضي في طريقها لم تفلح ، وأنه لا بد من عمل آخر . وخصوصاً بعد أن أسلم حمزة ، فاعتزّت الدعوة بإسلامه اعتزازاً كبيراً . .

تساوروا على عادتهم ، وانتدبوا عتبة بن ربيعة لكي يذهب إلى النبي يفاوضه في ترك هذه الدعوة ، على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغني قریش ، أو يجمعوا له الرياسات التي يصبح بها أرفعهم مقاماً ، وأعزهم ملكاً؛ أو يلتمسوا له الطب ، حتى يبرأ من هذا الذي يأتيه فينطقه بكلام عجيب . . وقد سمع النبي لعتبة صابراً . فلما انتهى قال له :

— أقد فرغت يا أبا الوليد؟ فقال نعم

— قال له النبي :

— فاستمع مني . ثم أخذ يتلو عليه قوله تعالى :

« حَمَّ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا . فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا

وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ .

ومضى رسول الله يتلو على زائره سورة فصلت . حتى إذا انتهى عليه
السلام الى قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ،
لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ » . ولما تلا هذه الآية سجد لربه سجوداً طويلاً ثم رفع رأسه
واستوى في مجلسه وأخذ يكمل الآيات الخمسين ترداداً أربعاً . حتى إذا فرغ
من سورة فصلت ، نظر إلى عتبة ، فإذا هو ملق يديه خلف ظهره ، يصغى
في هدوء ، وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغاً عظيماً . قال له النبي :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك

فلم يعقب عتبة بكلمة ، ولا علق بحديث . وانصرف مهموماً ، مطرق
الرأس يفكر أعمق تفكير في هذا الذي سمع والذي يفضله صاحبه على الملك
والمال ودواء الطيب . وهو حقيق بالتفضيل . فما ان رأت قریش صاحبها
حتى قال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس

إلَيْهِمْ قَالُوا :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا

بالسحر، ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

فقال له قريش وهي آسفة عليه وعلى ما أصابه :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فأشاح عنهم وقال :

هذا رأيي فيكم فاصنعوا ما بدا لكم .



واصطنعت قريش وسيلة أخرى لكي توقف هذا السيل الجارف من آى الذكر الحكيم الذى كان يهدم كل عقبة تقيمها فى سبيله . نظرت فى رجالها ، فوجدت النضر بن الحارث رجلاً فطناً ذكى الفؤاد طاف ببلاد الفرس وأقام بالحيرة زمناً ، وتعلم لسان الفرس ، وحفظ قصصهم الشائعة ، ووقف على آدابهم المشهورة . وكان مما حفظ قصص من الشاهنامه مثل رسم واسفنديار ، وسير الملوك السابقين فى بلاد كسرى . فكان إذا أقبل النبي الى الكعبة يحدث القوم ، قام هو من دونه ، وأخذ يقص عليهم من أدب الفرس ما علم ، ويقول : بماذا محمد أحسن منى حديثاً ؟

ولكن النبي كان يتلو

«ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك

لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصَرُ وَيُبْصَرُونَ بِأَيْكُمْ
الْمَقْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .
فَلَا تُطِعِ الْمَسْكَدِيَّ بَيْنَ . وَذُؤَا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ
مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُثِيمٍ . عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ .
أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ...»
إلى آخر سورة القلم .

فكان الناس يجمعون النضر وهو يثرثر بقصصه ، ولكن قلوبهم كانت
متعلقة بهذا الذي يتلوه محمد عليهم ، وفيه ما فيه من قرع للاسماع عنيف ،
وزجر للكفار مخيف ..

وكان ابن عباس يقول: نزل في النضر بن الحارث ثمان آيات من القرآن
قول الله عز وجل « إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ » وكل ما ذكر
فيه من الأساطير في القرآن .



ولجأت قريش إلى وسيلة أخرى لتكافح بهسا تأثير القرآن ، فأوفدت
إلى يهود يثرب وفدا يسألها عن الوسائل التي تستطيع أن تقاوم بها هذا الذي
جاء به محمد . فطلب منهم اليهود أن يسألوا النبي عن أمور . فلما عادوا إلى
مكة ذهبوا إليه وقالوا : يا محمد . أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد

كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوفاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها .
وأخبرنا عن الروح وما هي ؟ فقال لهم النبي :
— أخبركم بما سألتهم عنه غدا .

وكان رسول الله ينتظر أن ينزل عليه وحى فيه جواب ما سألت عنه
قريش . ولكن الوحي أبطأ على النبي خمسة عشر يوماً . وطارت قريش
فرحاً بعجزه عن الجواب . وقالت وعدنا محمد غدا . واليوم خمس عشرة ليلة
قد أصبحنا منها لا نخبرنا بشيء مما سألناه . وقد أجزى النبي انقطاع الوحي
عنه حزناً شديداً . وزاد في قلبه ما كان يتكلم به أهل مكة . وفي ختام هذا
اليوم نزل جبريل فابتدره النبي بقوله :

— لقد احتبست عني يا جبريل حتى سوت ظننا .. فرد عليه بالآية
الكريمة :

«وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .»

ثم أخذ جبريل يلقي سورة الكهف . وفيها رد على ما سألت
قريش وتفصيل رائع لكثير من الأمور التي تشغل الأذهان إذ ذلك ، وقد
أخذت عليهم إجابات سورة الكهف السبيل فلم يمحروا رداً ولا جواباً .



ووجدت قريش أن دخولها في محاورات مع النبي لن تجديها شيئاً .

فإنها دائما تعود بالهزيمة . إذ لا قبل لها بتحدى القرآن وسلطانه على النفوس .
وقر رأيها على أن تلجأ إلى ما نسميه اليوم المقاومة السلبية بأن تمتنع عن سماع
القرآن بتاتا ..

روى ابن اسحق :

جعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن
يستمعوا له . وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض ما يتلو
من القرآن وهو يصلي استترق السمع دونهم فرقا منهم . فإن رأى أنهم قد
عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع . وإن خفض رسول الله
صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا
دونهم أصاح له يستمع منه .

وقد روى ابن عباس . إنما أنزلت هذه الآية « ولا تجهر بصلاتك
ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل هؤلاء النفر .

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع
القرآن فما كانت بهم هم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون في أنفسهم من
رقة ومن شغف لسماع هذا التنزيل الذي لا عهد لهم به .

روى ابن اسحق أيضا :

إن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله
وهو يصلي من الليل في بيته . فآخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه . وكل

لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا . . وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهاؤكم (العامة) لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا . .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .
فلما أصبح الأحنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال له :

— أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال :

— يا أبا ثعلبة . والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها .

وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . فقال له الأحنس :

— وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته وقال له :

— يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

— ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا .

وحملوا غملمنا . وأعطوا فاعطينا . حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كقرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فتى ندرك مثل هذه ! . والله لا نؤمن به أبداً ولا تصدقه . . فقام عنه الأحنس وتركه .

وهكذا كانت قريش في حيرة من أمرها . ترق قلوبها للقرآن . ولكن نزاع العصبية وشارات الرياسة وأوضاع الجاهلية كل ذلك كان يحجبها عن الاسلام وعن اتباع محمد عليه السلام .

وكما كانت قريش تمنع أهل مكة من سماع القرآن ، كذلك كانت تحول بين أي مسلم وبين أن يتلو القرآن . وقد خطر لعبد الله بن مسعود مرة أن يذهب إلى الكعبة ويتلو بعضاً منه . فسار حتى أتى المقام في الضحى وقريش في انديتها وقام عند المقام ثم قرأ بصوت عال « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ »

فأصاحت قريش السمع حتى تنهبوا إلى أنه يتلو القرآن فصاح أحدهم إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا اليه فجعلوا يضربون وجهه وجعل يقرأ حتى آذوه أذى شديداً وأصابوه بجروح في وجهه . فلما عاد إلى أصحابه من المسلمين قالوا له : هذا الذي خشينا عليك . فقال عبد الله : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ولئن شئتم لا غادينهم بمثلها غدا . فقال له المسلمون :

— لا . . حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

واشتد أذى قريش للمسلمين فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة . ثم حدثت بعد هذه الهجرة مباشرة غزوة جديدة من غزوات القرآن لقلوب قريش إذ افتتحت معقلا من أشدها بنيانا وأمنعها قوة ونعنى به قلب عمر ابن الخطاب .

كان ذلك في العام السادس للبعثة ، وقيل بعد اسلام حمزة بثلاثة أيام . ولم يكن عدد المسلمين قد زاد في ذلك الوقت على اربعين رجلا مما يدل على عنف المقاومة التي لقيها النبي مدى هذه السنوات الست .

وقد قيلت في اسلام عمر روايات أكثرها منسوبة له ومنها :

روى أسامة بن زيد عن ابيه عن عمر بن الخطاب قال : اتحبون أن اعلمكم كيف بدأ اسلامي . . كنت من أشد الناس على رسول الله . فبينما أنا في يوم ما في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب ؟ إنك تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قلت : وما ذلك ؟ قال : اختك قد صبات . فرجعت مغضبا . وقد كان صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه ، ويصبيان من طسامه . وقد ضم إلى زوج اختي رجلين . فجئت حتى قرعت الباب فتقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . وكان القوم جلوسا يقرأون صحيفة

معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا، فقامت المرأة ففتحت لي، فدخلت عليها وقلت: يا عدوة نفسها. قد بلغني عنك أنك صبات [خرجت عن دينها] ثم ضربتها فسال الدم، فلما رأت الدم بكت وغضبت وقالت:

— اتضر بني يا عدو الله أن اوجد الله؟! لقد اسلمنا على رغم أنفك.

وما كنت فاعلاً فافعل.

ودخلت وأنا مغضب فإذا كتاب في ناحية البيت. فقلت: هذا الكتاب اعطينيه. فأبت إلا أن اغتسل. فاغتسلت وأخذت الكتاب فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وأخذت أقرأ حتى بلغت «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ» - إلى قوله: - «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وفي رواية أخرى السورة التي قرأها «طه ما أنزلنا عليك القرآن

لِتَشْقَى»

وزادت رواية أخرى أنه كان مع سورة طه سورة إذا الشمس كورت.

وواضح من اختلاف الروايات أنه لا يمكن الجزم بما قرأ عمر على وجه التحديد. ولكن من المؤكد أنها آيات قليلة، ذلك لأن القرآن لم يكن في ذلك الوقت يكتب كما نكتب الآن فيسهل تدوين السورة في صحيفة أو نحوها

على الورق . كما أن الكتابة في ذلك الوقت لم تكن قد تهذبت وصغرت حروفها ، وإنما كانت تكتب بحروف كبيرة . وكتابة سورتين من القرآن أو سورة يحتاج إلى عدد من هذه الصحف التي كانوا يكتبون عليها .

ومهما يكن أمر هذا الذي قرأ عليه بن الخطاب ، وأمر السور أو الآيات التي قرأها ، فقد كانت قطرات الدماء التي سالت من رأس اخته ، وكان فرع زوجها الذي هم عمر بالبطش به ، وأمر هذين الرجلين المسلمين اللذين فرأ لمرآه . . . كان هذا كله سببا في أن رقت حاشيته ولانت قناته ، فما أن قرأ آيات من القرآن حتى سكنت نفسه ، وثاب إلى رشده ، وأدرك جمال هذا الذي يقرأ وسموه ، فأعلن إسلامه ، وذهب إلى النبي وأصحابه حيث كانوا يجتمعون فتشهد وبايع ، وخرج إلى الملاء يقول : أسلمت . . أسلمت .

وفي رواية أخرى عن ابن إسحق تهمل قصة فاطمة بنت الخطاب وما حدث في بيتها ، وتقول : إن عمر سمع رسول الله في الليل وهو يتلو القرآن فرقى له قلبه وبكى وداخله الإسلام . ومكث في مكانه حتى انصرف النبي فتبعه عمر . فالتفت النبي في أثناء طريقه فرآه ، فظن أنه يتبعه ليؤذيه فزجره وقال له : ما جاء بك الساعة ؟ فرد عمر : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فحمد النبي الله وقال : قد هدك الله . ثم مسح صدره ودعا له بالثبات .

وفي رواية غير هذه أنه سمع رسول الله يتلو سورة الحاقة . يقول عمر : فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، فقلت هو شاعر كما قالت قريش . فقرأ :

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ» . فقلت
هو كاهن علم ما في نفسي . فقرأ : «وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» .
إلى آخر السورة . فوقع الاسلام في قلبي كل موقع .

ولما أسلم عمر خرج أمام رسول الله وهو متهلل الوجه حتى دخل الكعبة ،
فقال قريش :

— أتاكم عمر مسروراً . . ما وراءك يا عمر ؟ فصاح بهم :

— ورائي لا إله إلا الله . محمد رسول الله . فإن تحرك أحد منكم لأمكنن

سيفي منه .



بين مكة والمدينة

مضت الأيام يشبه بعضها بعضاً . النبي يتلو على قريش القرآن ، وقريش
تبالغ في الانصراف عنه وعن قرآنه وتبالغ في السخرية منه حتى اشتد به
الضيق . وكان الوحى عونه الأكبر في هذه الأوقات العصيبة . نزل عليه
بقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك
المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » .

ولقد أنفق عشر سنين منذ بعث وهو على هذه الحال يتلفت إلى كل
وجه من وجوه الأفق عسى أن يجد منفذاً لرسالاته ، فلا يكاد يستبين الطريق .
ونزلت به نازلة كارثة هي موت زوجته خديجة وعمه أبى طالب .

ولقد كانت الزوجة كما كان العم حاميين لمحمد وللدعوة ، يصدان عنه
بالنفوذ أذى قريش ، فلما ذهباً اشتد عليه وعلى أصحابه الأذى ، وتجهم أمامه
وجه الحياة أكثر من ذى قبل .

ذهب إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف ، فلم يجد عند ثقيف نصرة .

وعاد يستقبل وفود العرب وهي قادمة إلى مكة يعرض نفسه عليها ، معززا دعوته بقرآنه . وكانت هذه الوفود يختلف بعضها عن بعض ثقافة وحسن إدراك . فمنها من كانت تعلم بعض العلم ، وتزن الأمور بميزان العقل ، ولا ترى حرجا في أن تصغى إلى نبي الدين الجديد . وكان رسول الله يذهب إلى حيث كانت تضرب كل قبيلة خيامها ، فيقف على بابها ويقول لأهلها: يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد . وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى ابين عن الله ما بعثني به» .. ثم يتلو عليهم شيئا من القرآن ..

سمع له مرة سويد بن الصامت ، وكان يسمى الكامل لعلمه وعقله ، فقال للنبي بعد أن سمع كلامه

— فلفل الذي معك مثل الذي معي . فقال له النبي :

— وما الذي معك ؟ قال سويد

— بحجة لقمان . فقال له النبي :

— اعرضها عليّ

فعرضها عليه فقال النبي :

— إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا . قرآن أنزله

الله تعالى عليّ هو هدى ونور . ثم أخذ يتلو عليه بعض آيات الذكر ، فأصغى لها سويد وأحسن الإصغاء ، ثم تتمم :

— إن هذا القول حسن !!

ولقد أنتجت هذه الحركة في نهاية الأمر، ونعني بها حركة التصدي لوفود القبائل والتباس تأييدها بعد عرض الإسلام عليها إذ كان من بينها وفد من الخزرج أكثر علما وتهذيبا من غيره من الوفود . فقد كان اليهود يعيشون معهم ويعلمون الكثير من أمر الوحي وأمر السماء وأمر الأنبياء . وكانت الأحاديث تدور في يثرب من فم إلى فم أن نبيا يوشك أن يظهر فما إن دعا رسول الله هذا الوفد وحاوره قليلا حتى آمن به وصدق له . وعاد الوفد يستشير قومه فرضى القوم بالإسلام وكانت بيعة العقبة الأولى .

وحرص النبي على أن يعلم هؤلاء المسلمون الأول من رجال القبائل عن القرآن أكثر مما تسمح به مقابلة قصيرة الأمد يحوطها التكتم والخفاء، فبعث معهم مصعب ابن عمير وأمره أن يعلم أهل يثرب القرآن ويبصرهم في شئون الدين . ولذا يعد مصعب أول معلم للقرآن ، وقد أطلقوا عليه في يثرب اسم (المقرئ) .

ولقد اتبع (المقرئ) ومن أسلم من أهل يثرب طريقة رسول الله في حمل الناس على الإسلام ، كانوا يعرضون عليهم صيغة يسيرة للإسلام هي :
(أن تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين) .
وبعد هذا يتلو الداعية القرآن ، فكان القرآن يشق الطريق إلى القلوب التي لم تجف ولا تزال في نضارتها .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية، وظهر على أثرها أن يثرب هي معقل الإسلام، وأنه لم يعد في مكة خير للإسلام، وقد اختار في هذه البيعة الثانية اثني عشر نقيباً ليكونوا أئمة الدعوة بين قومهم، وكان سلاح الدعوة الأول كما ذكرنا تلاوة القرآن .

وقد أصبحت يثرب بمن أسلم فيها مستقرًا أمينًا لدعوة الإسلام، فأذن النبي للمسلمين من مكة في الهجرة ثم جاءه الإذن بالسفر إليها، وكانت مهمة النبي وهو يهاجر واضحة وهي أن يكره قريشاً على الإسلام بحمد السيف بعد أن بذل لها النصيح ثلاثة عشر عاماً فلم تزد إلا اعتواً .

وهناك خلاف في الأذن بالقتال هل كان قبل الهجرة أم كان بعدها . أما ابن إسحق فيقول : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب وتابعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليه من المسلمين أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار .

ويقول عامة المفسرين إن الأمر بالقتال نزل بعد الهجرة، ففي الزمخشري كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله أذى شديداً . وكانوا يأتون رسول الله بين مضروب ومشجوج يتكلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأنزلت آية القتال . وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية . إلا أنه يورد قولاً آخر وهو أن آية

القتال نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم .

وقد وردت آية القتال بين آيات سورة الحج ونصها :

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ . وَلَوْلَا دَفْعُ
اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا . وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ » .

وتكرر بعد هذا أمر القرآن بالقتال وازداد تأكيذا في سورة البقرة
« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ (وجدتموهم) وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ
أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ . وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ ، فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ
إِنِ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ اتَّهَمُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .



وأخذ النبي ينفذ برنامجه الجديد على نحو ما فصلناه في كتبنا الأربعة عن السيرة الحمديّة . وكان الوحي عوناً في أعماله كلها .. إلا أن دور القرآن في هذه الفترة لم يكن دور هجوم في أغلبه كما كان في الفترة المسكية . بل كان في بعض الأحيان دور دفاع وفي البعض الآخر دور اخبار مشوب بهجوم .. ذلك أن يثرب كانت مستقر اليهود، وقد تحفز اليهود لمهاجمة العقيدة الإسلامية مستندين إلى أنهم أهل كتاب سابق على القرآن . فكان الوحي ينزل بحوارهم ومجاداتهم ، ويرد هجومهم في لطف حيناً وفي عنف بالغ أشد القوة حيناً آخر .. ولقد ذكرنا في كتابنا عن (النبي واليهود) أن ثلث القرآن تقريباً إنما نزل في الدفاع عن العقيدة الحمديّة ضد مزاعم اليهود .. فأى جهد أنفق وأى عناء بذل .. وكانت للوحي مهمة أخرى إلى جانب كفاح اليهود وهي الكشف عن المنافقين وتشديد النكير عليهم . وفي هؤلاء القوم نجد آيات كثيرة جداً لا تصل في كثرتها إلى آيات اليهود ولكنها تستغرق قسماً من طوال السور ..

وإلى جانب تأييد الوحي للبرنامج الحربي الذي شرع فيه رسول الله ، فإنه أخذ ينزل بتشريع الإسلام ، ووضع أسسه الخلقية ، والاجتماعية .



وإذا أضفنا المدة التي نزل فيها الوحي بمكة ، إلى المدة المدنية فيكون

نزول القرآن قد استغرق ثلاثاً وعشرين سنة . ولكن لا يمكن الجزم بمقدار
المدة بين أول آية نزلت وآخر آية نزلت على وجه التحديد .

أما الشيخ الخضري في كتابه « تاريخ التشريع الإسلامي » فيحدد المدة
على الوجه الآتي :

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم منجماً من ليلة اليوم السابع
عشر من رمضان لسنة الحادية والأربعين من ميلاده حيث أوحى إليه في
غار حراء الذي كان يتجنت فيه أول آية وهي (اقرأ ..) إلى تاسع ذى الحجة
يوم الحج الأكبر لسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده حيث
أوحى إليه بأخر آية وهي « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فالمدة بين مبتدأ التنزيل ومختمه
اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً .

ثم قال الشيخ : لم ينزل بعد حجة الوداع على النبي شيء من الفرائض
ولا تحليل شيء ولا تحريمه ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول
هذه الآية إلا احدى وثمانين ليلة .

ويقسم نفس المصدر عهد نزول القرآن إلى القسمين المشهورين ، وهما
عهد مكة وعهد المدينة . ويحدد مدة كلٍّ كما يأتي :

الأولى — مدة مقامه بمكة وهي اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة

عشر يوما . من رمضان سنة ٤١ إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده
وما نزل من القرآن منها يقال له المكي .

الثانية — ما بعد الهجرة وهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام
من أول ربيع الأول سنة ٥٤ إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ،
وسنة عشر من الهجرة وما نزل من القرآن فيها يقال له المدني .

ومكي القرآن أكثر من مدتيه إذ يبلغ ١٩ من ٣٠ ومدنيه نحو ١١

من ٣٠ .

ومن العسير أن نسير مع كتاب تاريخ التشريع فنقر هذا التحديد
الدقيق بالسنة والشهر واليوم ، وكاد يورد الساعة أيضا . ذلك أن هذه
التواريخ إنما تعتمد على روايات وقد تعددت الروايات وكثرت . واختلف
الفرق بينها كما ذكرنا في بدء نزول الوحي ، إذ أمكن أن يوجد خلاف على
خمس سنين دفعة واحدة !! ولا نستطيع أن نجرح رواية ونعتمد أخرى ،
ذلك أن أغلبها يعتمد على سند يؤخذ به . بل إن الخلاف تجاوز مدة نزول
القرآن إلى تعيين آخر آية نزلت من القرآن .

فمن هذه الروايات ما أورده الاتقان إذ يستهل البحث الخاص بهذه النقطة
بقوله : « آخر ما أنزل فيه اختلاف » .. عن البراء أن آخر آية نزلت :
« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » . وآخر سورة نزلت براءة .
وأخرج البخارى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا . وأيد عمر

ابن الخطاب هذه الرواية مرتين . وأخرج النسائي عن ابن عباس أيضا أن
آخر شيء نزل من القرآن (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ..) وأورد
الطبري هذه الرواية نفسها .

وإذا كان الشيخ الخضرى يجزم بأن الوحي لم ينزل على النبي قبل وفاته
مدة احدى وثمانين ليلة ، فهذه رواية عن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل
من القرآن كله « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ .. » وعاش النبي بعد
نزول هذه الآية ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلقتا من ربيع الأول .

كما يورد الاتقان روايات أخرى أن آخر آية نزلت هي آية الدين .
ويعلق السيوطى على هذا الاختلاف فى الروايات بقوله (ولا منافاة عندى
بين هذه الروايات فى آية الربا ، وآية واتقوا يوما ، وآية الدين لأن الظاهر أنها
نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ولأنها فى قصة واحدة فاخبر كل عن
بعض ما نزل بأنه آخر .. وذلك صحيح !)

وإذا حاول السيوطى أن يوفق بين هذه الروايات فماذا هو قائل فى
رواية تسند إلى ابن عباس أن آخر سورة نزلت : « إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »
ورواية أخرى تسند إلى عائشة أن آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح ..
ولقد أدهش السيوطى إن ترد روايات أخرى منسوبة لابن عباس
ولعائبة بن أبى سفيان ولأم سلمة تقول إن آخر ما نزل : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءِ رَبِّهِ . « وَأَيُّهُمُ أَلْبَسَ عَمَلَهُمْ نَارًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » وَأَيُّهُمُ
« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ » .

ويورد السيوطي في آخر هذا الفصل ما يدل على حيرته بين هذه الروايات المتناقضة والتي ينسب بعضها إلى مصدر واحد . فيقول (من المشكل على ما تقدم قوله تعالى «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» . فإنها نزلت بعرفات عام حجة الوداع، وظاهرها اكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها . وقد صرح بذلك جماعة منهم السري . فقال لم ينزل بعدها حلال ولا حرام . مع أنه ورد في آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك . وقد استشكل ذلك على ابن جرير وقال الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بأقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون . ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس (أيضا . !!) قال كانت المشركون والمسلمون يحجون جميعا . فلما نزلت (براءة) نفى المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركونهم في البيت الحرام أحد من المشركين . فكان ذلك من تمام النعمة . وأتممت عليكم نعمتي)



هذا عن آخر آية نزلت وما يقال فيها . وأما المدة التي نزل فيها القرآن ، فهي أيضاً موضوع خلاف ، وحسبنا أن نذكر جملة السيوطي في هذا الباب :

نزل القرآن منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ..



ونزول القرآن « منجماً » يعني أنه نزل مفزقاً كل بضعة آيات معاً .. وذلك أن الوحي كان ينزل بالقرآن مبيناً للحوادث الجارية التي تعاقبت على حياة النبي من بعثته إلى وفاته .

ونرى في القرآن آية : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » .
وآية « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » وآية « وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ » وآية « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ » .

وقد عرض المفسرون للوح المحفوظ ، وليلة القدر ، ولأم الكتاب في تفسيرات كثيرة جلها أنشأه الخيال وتفنن فيه . فمن ذلك ما روى البغوي عن ابن عباس (دائماً ابن عباس !!) أن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الاسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعدده ، واتبع رسله أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته من الدر والياقوت ، ودفناه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش وأصله في حجر ملك .

وهذا كما ترى خيال بديع ، وإن كنت لا أدري إذا وكل لرسام أن يخرج لنا صورة ملونة لما وصف الراوى عن ابن عباس هل يستطيع أم لا ؟ .
وغاية ما نقول فى اللوح المحفوظ ، وفى ليلة القدر وفى أم الكتاب ان سبيل فهم دلالتها الدقيقة قد أغلق علينا ، وان علينا أن نؤمن بها كما هى ، دون أن تتورط فى الشرح ، وأن نسرف فى الخيال . . وقد حاول بعض المستشرقين أن يصل من بحث الدلالات اللغوية لهذه الألفاظ إلى فهم معانيها كأن يقول أحدهم مثلاً ان ليلة القدر هى ليلة المقدرة « allpower » ولكن هذا أيضاً كلام لا يفيد كثيراً . والشخص الوحيد الذى يستطيع تفسير هذه الألفاظ هو النبى عليه الصلاة والسلام ، ومنذ انتقل الى الرفيق الأعلى فقد انتقل معه تفسير ما أغلق من كلام القرآن . .

ولكننا نفهم أيضاً من آيات اللوح المحفوظ وليلة القدر ، وأم الكتاب ، أن القرآن نزل أول ما نزل جملة واحدة وأن الوحي كان يهبط به آيات آيات على قلب النبى حسب الحوادث العارضة . وذلك أنه قد سبق فى علم الله أن هذه الحوادث ستحدث فقال فيها كلامه ، ثم هبط بهذا الكلام الإلهى الوحي كل قسم منه فى مواعده

وآيات القرآن — فيما نرى — خاصة بالنبى محمد لا بغيره من الأنبياء ، لأنها متصلة بما جرى له من أحداث صاحبت دعوته هو . . ولذا لا يفهم ماورد

عن الحسن البصرى من أنه قال : ان هذا القرآن الحמיד عند الله فى لوح محفوظ
ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه . .
وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل .
وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الإفك جملة . وصح نزول عشر آيات من
أول المؤمنين جملة . وصح نزول جملة « غير أولي الضرر » وحدها وهى
بعض آية .

والحكمة فى نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن
النبي من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إلامها على كتابه ليدونها .
وقد وردت فى القرآن آية بهذا المعنى هى : « وَقُرْ آنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ
عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » . . فقد ذكر ابن عباس أن
القرآن أنزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك مفرقاً فى
عشرين سنة . وقراً « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .
« وَقُرْ آنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » والملك
هو التمهل والتأنى . .



ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة جداً وهى كل
القرآن تقريباً . . فمن ذلك مثلاً ما اتصل بعمر بن الخطاب وكان هو سبباً فى
نزوله . فقد روى عنه أنه قال :

واقفت ربي في ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : « وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » . وقلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت لمن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك .

وفي رواية أخرى أنه لما نزلت الآية : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » ، قال عمر بن الخطاب قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين . فنزلت الآية كما نطق عمر . « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »

وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » ثم قطعت يده اليسرى فحني على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ . . . » ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » يومئذ حتى نزلت بعد ذلك وذكر البخاري من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فجاء ابن أم مكتوم وقال : يارسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى فانزل الله « غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ » .

وأورد كتاب تاريخ التشريع :

كانت الآيات التشريعية ، وهي آيات الأحكام تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغالب جواباً لحوادث في المجتمع الإسلامي ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول . وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن . وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة . وضرب أمثلة للقسمين .

أولها — أرسل رسول الله مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها قوماً مسلمين مستضعفين . فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه . وكانت ذات جمال ومال . فأعرض عنها خوفاً من الله . ثم أقبلت عليه تريد زواجه فقبل ووقف ذلك على إذن رسول الله ، فلما قدم المدينة عرض قضيته عليه وطلب إجازة ذلك الزواج ، فنزل قوله تعالى في سورة البقرة « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ . وَلَا مَؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ . وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا . وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثانيهما — وردت في القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت
من المؤمنين أو من غيرهم، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ : قُلْ .. » و « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ
فِيهِ : قُلْ .. » وفي سورة النساء : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ »
إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التي أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة . وقلما ترى حكماً
لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه .



النبي والقرآن

القرآن هو معجزة رسول الله الكبرى ، وسلاحه الذي شق أمام دعوته الطريق وغزا به القلوب . . ولم يعن نبي قبل محمد بحفظ كتابه والدفاع عنه ضد التحريف والتبديل . . والذي لا شك فيه أن ذاكرة رسول الله كانت أول واعٍ للقرآن وحافظ له ، ثم انتقلت إلى ذاكرة صاحبه أبي بكر وتلميذه عليّ ثم وعاه على تفاوت في المقدرة على الحفظ بقیة أصحابه .

ولقد كان النبي لا يكتفي في صون القرآن بما تعيه ذاكرة الناس ، ولكنه كان يأمر من يستطيع الكتابة من أتباعه بتدوينه . وكان زيد بن ثابت يكتب له . وقد وردت روايات كثيرة تؤيد قيامه بهذه المهمة . من هذا ما ذكر ابن حاتم عن زيد نفسه قال : « كنت أكتب لرسول الله ، فإني لو وضع القلم في أذني إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ينتظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف لي يا رسول الله وأنا أعمى ، فأنزلت : « .. لَيْسَ عَلَيَّ الضُّعْفَاءُ » . ومن هذه الروايات أيضاً ما ورد في البخاري من حديث زيد

ابن ثابت أن رسول الله أملى عليه « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. » الخ

والذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة من أصحابه الأول أبو بكر وعمر
وعثمان وعلي والزبير ، وقد أحصى كتاب الإسلام والحضارة العربية اثنين
وأربعين كاتباً كانوا يؤلفون الديوان النبوي .

ولكننا نقلب ما بين أيدينا من مراجع لكي نظفر بصورة دقيقة واضحة
عن طريقة كتابة الوحي في الفترة للمكية التي استمرت نحو ثلاثة عشر عاماً
فلا نكاد نظفر بشيء يستحق الذكر .. حقيقة كان هؤلاء الصحابة الذين
ذكروا بجوار النبي ، بعضهم منذ الدقيقة الأولى والبعض أسلم بعد سنين ،
ولكن وجودهم لا يدل على أنهم كانوا يقومون بمهمة تدوين القرآن في الفترة
المكية .. وذلك لأن هذه الفترة كانت فترة اضطراب عنيف في حياة
الإسلام ، فقد كان معتنقوه قلة قليلة جداً لا تكاد تذكر ، وكانت قریش
تلاحقهم بأذاها المتصل وتضيق عليهم الخناق ، فهل يمكن أن نغرض وجود
نظام ثابت لتدوين الوحي في هذه الفترة ؟

لقد لاحظنا من قبل أن مدة مقام النبي في مكة لم تتضح معالمها بعد
وضوحاً كافياً ، وأن المؤرخين الأول مروا سراعاً على كثير من مراحلها لما
غاب عنهم من العلم بتفاصيلها ..

وإذن فنحن لا نستطيع أن نجزم بأن القرآن لم يدون في الفترة المكية
ولكننا على ثقة من أن وسيلة العلم المؤكد لدينا بنبأ هذا الموضوع ليست
ميسورة ولا هي ممكنة .. وعلى هذا فإننا نلجأ إلى بعض فروض ، ونستند
إلى إشارات خفيفة مفرقة في بعض الكتب .

فنحن نعلم مثلاً من قصة إسلام عمر أن المسلمين كانوا يختبئون مع النبي
في بيت عند الصفا ، وقد اغلقوا من دونهم الباب ولم تعلم قريش مكان هذا
البيت ، ولكن من المؤكد أن هذا البيت — وهو المدرسة الأولى للقرآن —
كان المكان الذي حفظ فيه الصحابة الأول الكثير من آيات الذكر .



وتقول دائرة المعارف الإسلامية نقلاً عن البلاذري أن حفصة وأم كلثوم
كانتا تعرفان القراءة والكتابة ، وأن عائشة وأم سلمة كانتا تعرفان القراءة
ولا تعرفان الكتابة .. ولكن هذه الرواية لا تفيدنا في شيء لأننا نبحث
عن التدوين في الفترة المكية ، لا المدنية ..

إلا أن نفس المصدر ينقل عن الأزرقى أن بلداً مثل مكة كانت تسكن
فيه التجارة مع الخارج ، ما كان يمكن أن يخلو من كثيرين يكتبون
ويقرأون . فالتجارة تحتاج إلى حساب والحساب يحتاج إلى تدوين . ومن هنا
يتدرج الباحثون إلى البحث في : هل كان النبي يعرف القراءة والكتابة
أم لا ؟

أما أكثر المستشرقين فيقولون إن كلمة (أى) التى وصف بها النبى ،
غامضة ، ولا تدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة
وقد تكون نسبة إلى كلمة (أمة) أى أنه النبى المبعوث لهذه الأمة .

وتثير دائرة المعارف إشكالا آخر . وهو أنه ورد فى سورة العنكبوت
الآية « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَحْتُطُّ بِبِيَمِينِكَ ، إِذَا
لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ » وهى تدل على أنه تعلم القراءة فى الكبر ، أى بعد نزول
القرآن ، وإن كان التعبير غامضا أيضا .

وليس التعبير غامضا ، ولكن التخريج الذى خرجته الدائرة فاسد ،
إذ أن لفظ الآية صريح كل الصراحة فى الدلالة على أن أهل مكة عرفوا عن
النبى قبل نزول الوحي أنه لم يكن يتلو كتابا ، ولا يكتب بيمينه . ولو أنه
كان كذلك إذن لارتاب المبطلون ، بأن يذكروا أنه كانوا يخجلوا إلى نفسه
فيكتب القرآن ويعدده ثم يخرج للناس فيتلوه عليهم .

وآية أخرى وردها دائرة المعارف وهى : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ
ا كَتَبَهَا ، فَهِيَ تَتْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ^(١) » . ولا يفهم من هذه الآية
شئ مما أريد حمله عليها . إذ أنها تدل فى بساطة على أن كفار قريش كانوا
يدعون أن رسول الله يكتب ما يملئ عليه من أساطير الأولين . وليس كل

ما يدعى الكفار صوابا ، بل هو هجوم يقصد منه تجريح القرآن واضعاف شأنه . ولعل المعنى يكون أكثر وضوحا إذا تلونا الآية السابقة والآية التالية . إذ يقول الله تعالى « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا . وقالوا أساطير الأولين أكتبنا بها فحى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » .

ولست دائرة المعارف ، وغيرها من كتب المستشرقين وحدها التى تحاول إثارة هذه الشبهات ، ولكن تناثرت فى كتب المسلمين إشارات إلى هذا الموضوع . فقد ذكر ابن كثير القرشى .

(ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . وإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى . ثم أخذ فكتب . وهذه محاولة على الرواية الأخرى : (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرأوا منه ، وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم . وإنما أراد الرجل — أعنى الباجي — فيما يظهر أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال رسول الله

اخبارا عن الدجال (مكتوب بين عينيه كافر) . وفي رواية (كف ريقؤها
كل مؤمن) . وما أورده بعضهم من الحديث انه لم يمت صلى الله عليه وسلم
حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له .

ولا يعيننا أن نتقصى أنباء هذه الفتنة التي يصفها ابن كثير بأنها طارت
في المشرق والمغرب ، تقول ان النبي كان يعرف القراءة والكتابة ، وهل كان
هذا في صغره أم عرفه وهو كبير السن ، لا يعيننا هذا ، فهو إلى مباحث
السيرة النبوية أقرب ، وإن لم يتعرض له أحد من الباحثين الحديثين إلى
اليوم .. إلا أن ما يعيننا أن نجيب عليه هنا هو :

هل نزل القرآن وقام النبي بكتابته أم لا ؟

والجواب على هذا بالسلب . فليست هناك نصوص غامضة أو واضحة في
أى كتاب من كتب التاريخ القديم أو الحديث تقول ان النبي كان يكتب
ما يوحى إليه ، والقول الفصل في هذا هو ماورد في القرآن الكريم نفسه فقد
أكد في مواضع كثيرة ، ان القرآن أنزل على قلب رسول الله ، وانه كلف
بحفظه وبأن يحفظه المسامون .. لا أن يكتبوه .

« فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » البقرة .

« نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » الشعراء

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ » الأعراف .

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » الجمعة .
وإننا نلاحظ في كلمة الْأُمِّيِّينَ هنا ، وهى جمع أمى ، انها تعنى جماعة قريش أو العرب .. ولو أن المراد — كما يقول المستشرقون — بكلمة أمى انه مبعوث إلى الأمة ، فماذا يراد بكلمة أُمِّيِّينَ .. المفهوم أن المبعوث يكون واحدا أما أن يبعث أمى « لا أُمِّيِّينَ » بهذا المعنى الملتوى فأمر غير مفهوم .
لأنحسب أن المعنى يستقيم كما يقول هؤلاء المستشرقون ، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن كلمة أمى من الاصطلاحات القرآنية ، التى لا نفهم دلالتها اللغوية فهما دقيقا الآن ...



وإذن فلم يكن النبي يكتب ما يوحى إليه ، ولا نعلم على وجه دقيق كيف كان يكتب القرآن فى العهد المسكى .

ولسكنا نذكر فى الرواية الشائعة التى تقص عن إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد فى يد أخته فاطمة (صحيفة) فيها آيات من القرآن . وعلى الرغم من أن هناك روايات أخرى تهمل قصة فاطمة وما حدث بينها وبين عمر إلا أن من الممكن أن نعتمد عليها فى أن نعلم أنه كانت هناك صحف تكتب فيها أجزاء من القرآن سواء كانت هذه الصحف عند فاطمة أخت عمر أو عند غيرها ..

وكلمة (صحيفة) لا تدل على الورق الذي نعرفه اليوم ولكنها على كل حال شيء مبسوط خفيف الحمل يكتب عليه في سهولة . وأكاد أشك في أن العرب لم يعرفوا وسيلة للتدوين عليها إلا قطع الأحجار والعظام وغيرها مما يروى أن القرآن كان يكتب عليه في حياة النبي .. إذ يكفي أن نتصور مثلا أن عشر آيات نزلت على النبي وأن زيد بن ثابت جالس بجواره يكتب .. ففي كم من الأحجار أو أجزاء النخيل يستطيع أن يدون هذه الآيات ، انه ليجتاج إلى قدر غير قليل . فإذا سرنا مع الرأي القائل بأن القرآن الذي نزل في مكة دون كله ، وهو نحو ثلثي المصحف وتصورنا كتابته على هذه الأدوات الخشنة في حجمها وملسها فعلينا أن نتصور أن ثلثي القرآن الذي كتب في مكة كان مصحفا يحتاج إلى عشرين بعيرا لحمله ... ولم نعلم من أبناء الهجرة أن قافلة من الأحجار فرت قبل النبي أو مع النبي ومعها هذا الحمل الغريب ..

وإذن فنحن نفرض فرضا آخر ، وهو أن العرب كانوا يعرفون (المصحف) ولنعرفها بأنها أداة مبسطة خفيفة الحمل يكتبون عليها .. وليس غريبا أن يعرفوا هذه الصحف فقد كان اليهود يقيمون غير بعيد من مكة وكانت لهم كتب كثيرة يتدارسونها ، وكانت مكة كما ذكر الأزرق طريق تجارة تدون حساباتها ووثائقها ، وأكثر من هذا انا نعلم أن « صحيفة » كتبت في مكة ، كتبتها قریش لإعلان الحصار الاقتصادي والاجتماعي على بيت هاشم . وأن

كاتب الصحيفة كان منصور بن عكرمة ، وقد علقّت الصحيفة في الكعبة .
ولما آذنت مدة الحصار بانقضاء ، وقام على نقضها أفراد من قریش وقف واحد
منهم في قومه (هو زهير بن أمية) وقال : يا أهل مكة أنا أكل الطعام ولبس
الثياب وبنو هاشم هلكت لا يبيعون ولا يبتاع منهم . والله لا أتعّد حتى
(تشق) هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .. وقام واحد إلى الصحيفة « ليشقها »
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

ولا نحسب أن من الجائر — إذا كانت الصحيفة حجرا أو عظمة أن
من الممكن شقها ، ويؤكد لنا علماء الحيوان أن الأرضة لا تحب أكل
الأحجار والعظام وإن كانت تستطيع سحق النبات والنسيج وغيرها !!
ولقد وردت في القرآن كلمة صحيفة ، مثل قوله تعالى : « في صحفٍ
مُكْرَمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » .

وتمت كلمة أخرى وردت في القرآن عما يكتب عليه ، وهي القرطاس :
قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ
مِنْ شَيْءٍ . قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ .
تَجْعَلُونَهُ قرَاطِسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا .. »

وقال : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قرَاطِسٍ فَامْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

والقرطاس لا يخرج في معناه عن الصحيفة . ويفهم من هذه الآيات أن القرآن لم ينزل في قرطاس ، وأنه لم يجعل في قرطاس كما كان شأن التوراة التي في يد اليهود .

وهذه النصوص تدل على أن القرآن لم يكن يكتب على سبيل الحصر في صحف وقرطاس : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. »

أى أن الحفظ كان أساس العلم بالقرآن وليست التلاوة من صحف مسطورة .

وأما ما كان في المدينة ، فقد وجدت الصحف وعرفت ، وكتب صلح الحديبية على واحدة منها ، وكثرت رسائل النبي إلى الملوك والأمراء ، ويمكن القول بأن التدوين الفعلي للقرآن قد بدأ في هذه الفترة . . .
ونكتفي بهذا القدر الآن ، وسنفضل بحث هذه النقطة عندما ننتقل إلى تدوين المصحف والمراحل التي مرّ عليها .



ولا بد لنا هنا من أن نسأل سؤالاً آخر :
هل كان الصحابة جميعاً يحفظون القرآن كله ؟
المرجح أنهم لم يكونوا يحفظون كل القرآن . وسنرى حينها نتحدث عن

جمع زيد بن ثابت للقرآن أنه وجد مشقة كبيرة في العثور على رجل يحفظ القرآن كله . .

وورد في فجر الإسلام للاستاذ أحمد أمين :

« ولم يكن شائعاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد . إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها فإذا حدقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها . فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة . قال أبو عبد الرحمن السامى : حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرها أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها ، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا (رواه أحمد في مسنده) . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، ذلك أنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم » .

إلا أن النبي كان شديد الحرص على أن يعلم المسلمين القرآن فقد خصص سيدة لتعليم النساء القرآن ، كما ندب بعض الصحابة لتعليم الرجال القرآن^(١) . وقد حض رسول الله على تعليم القرآن في أحاديث كثيرة فقال : « إن النبي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » . رواه الترمذى والحاكم

(١) راجع كتابنا عن محمد الجزء الثاني .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي : « إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شيء من كتاب الله » .

وعن أبي أمامة الباهلي : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه مسلم .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله قال : « من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا . فما ظنكم بالذي عمل به » .

وعن عبد الله بن عمر : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه . لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجدمع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله » زواه الحاكم .

وعن أنس أن رسول الله قال : « إن لله أهلين من الناس . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » رواه النسائي .

وعن أبي ذر أن النبي قال له : « يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أولم يعمل خير من أن تصلي مائة ركعة » .

وأخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب قال : « أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما الخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم

ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن
ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم
وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة
ولا تشيع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . وهو
الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ فَأَمَنَّا بِهِ » . من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به
عدل . ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم^(١) .

هذا طرف من أحاديث رسول الله داعياً إلى القرآن غير ما ورد في القرآن
نفسه من دعوة للناس إلى تلاوته وحفظه والتأمل في معانيه .



(١) جمع هذه الأحاديث فضيلة الشيخ الدعوى في مجلة نور الاسلام .

لغة القرآن

لغة القرآن؟! وهل يمكن أن يقال في هذا الباب إلا أن لغته هي العربية الفصحى .. هذا ما يقوله المصحف أول ما يقع عليه النظر ويتحرك بآياته اللسان وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة تدرك بالبداهة ، إلا أن باب « لغة القرآن » باب فسيح متسع لكثير من القول ، بل لكثير من الجدل . فلقد اختلف العلماء في لغة القرآن ، وما زالوا مختلفين . ولا يمكن أن يدلى اليوم ولا بعد اليوم بالقول الفصل في لغة القرآن ، وكل ما يمكن هو عرض طائفة من الآراء الحديثة والآراء القديمة ، والإشارة إلى ما في هذا الرأي من احتمال الصواب ، وما في ذلك من احتمال الخطأ ..

وقبل كل شيء .. ما معنى كلمة قرآن هذه التي ينطلق بها اللسان اليوم في يسر وسهولة ، ومن أين جاءت ، وماذا فهم القدماء منها ، وماذا يمكن أن نفهم نحن منها اليوم !!

تحصى مذكرات الأزهر^(١) خمسة أقوال في لفظ «القران» هي :
أولاً — ما ذهب إليه الشافعي أن لفظ القرآن المعروف بأل ليس مهموزاً
ولا مشتقاً بل وضع علماً على الكلام المنزل على النبي المرسل صلى الله عليه
وسلم .

ثانياً — ما نقل عن الأشعري وأقوام أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء
إذا ضمته إليه . ثم جعل علماً على اللفظ المنزل . وسمى بذلك لقران السور
والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثاً — ذهب القراء إلى أنه مشتق من القرآن لأن الآيات فيه يصدق
بعضها بعضاً . وجعل علماً على اللفظ المنزل لذلك . وهو على هذين غير مهموز
أيضاً ، كالذي قبلهما ونونه أصلية .

رابعاً — قال الزجاج هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء
بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته . وسمى الكلام المنزل على
النبي المرسل به قرآنًا لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامساً — ما ذهب إليه اللحياني وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن
الغفران سمي به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر
ويختار صاحب المذكرات القول الرابع والقول الخامس .



(١) سبقت الإشارة إليها في المقدمة

وينقل كتاب الإتيان عن الجاحظ أن الله سمي كتابه اسماً مخالفاً لما سمي
العرب كلامهم .. سمي جملته قرآناً كما سمي العرب جملة كلامهم ديواناً .
وسمي بعضه سورة كقصيدة . وسمي بعض السورة آية كالبيت . وسمي آخر
السورة فاصلة كقافية .

كما أورد كتاب الإتيان الأقوال المروية في المذكرة الأزهرية .
ويورد الإتيان رواية هامة عن كلمة مصحف فيقول ، حكى المظفرى فى
تاريخه قال لما جمع أبو بكر القرآن قال سموه . فقال بعضهم سموه انجيلاً ،
فكرهوه وقال بعضهم سموه السفر ، فكرهوه ، فقال ابن مسعود رأيت
بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسموه به ..

كما يذكر أن كتب الأنبياء السابقين أسميت فى المصحف بأسماء القرآن
فسميت التوراة الفرقان فى قوله « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ »
وسمى الزبور قرآناً فى قوله « خفف على داود القرآن » .

وتبدأ دائرة المعارف الإسلامية بحثها فى مادة قرآن ، بذكر اختلاف
المسلمين فى نطق واشتقاق ومعنى كلمة قرآن .. فبعضهم يقول القرآن من غير
همز ، ويذهب إلى أنها كلمة وضعت كما وضعت كلمة توراة وإنجيل . وهو كما
ترى قول الشافعى الذى سبق ذكره . ثم تمضى الدائرة فى ذكر بقية الأقوال
الخمسة . وتضيف إليها قولاً سادساً وهو ما ذهب إليه شغالى (Schwally)

ولها وزن (Wellhausen) من أن الكلمة عبرية أو سريانية تكتب هكذا
(Kiryani - Keryani) ومعناها ما يقرأ ..

وتميل دائرة المعارف مع هذين العالمين ، إلى رأيهما الذي يقول بأن
« قرأ » بمعنى تلا ليست كلمة عربية النسب ولكنها دخيلة على اللغة .



ولابد لفهم المعنى الدقيق لكلمة قرآن من أن نأخذ المعنى من استعمال
المصحف لها .

ففي سورة القيامة : « لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلِمْنَا
بِجَمْعِهِ وَقَرَّ أَنَّهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » .

ظاهر المعنى هنا التلاوة والقراءة .. أى أن القرآن هو كلام الله الذي
يردده الناس .

ويؤيد هذا المعنى ماورد في سورة الإسراء : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَىٰ أَكْثَرُ
النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ... (ثم) أَوْ يَكُونُ لَكَ يَنْتَ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى
فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » .

إلا أن هذه الآيات تضيف توضيحاً جديداً ، وهو أن القرآن ، كلام الله الذي يردده الناس ، ولا يشترط أن تكون التلاوة في كتاب مسطور .

وفي سورة البقرة : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ » .

وفي سورة الحجر : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وفي سورة طه : « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » .

وفي سورة النمل : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » .

وفي سورة الأحقاف : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » .

« الْقُرْآنَ » .

وفي سورة الواقعة : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » .

وفي سورة الحشر : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

مُتَّصِدًا . . »

وفي سورة الدهر : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا »

وفي هذه الآيات جميعاً ، وفي كثير غيرها مما يجري استعمال اللفظ فيها على

هذا النحو ، تدل كلمة قرآن على أنه كلام الله الذي نزل به الوحي على نبيه

محمد عليه السلام .

إلا أن هذه الآيات الكثيرة التي اقترنت فيها كلمة القرآن بفعل قرأ تضعف قليلا من قول الشافعي وقول المستشرقين الذين يذهبون إلى أن السكامة وضعت من غير اشتقاق مثل كلمة انجيل وتوراة . . ومثال هذا غير ما ذكرنا : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ أَنْ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » الأعراف . « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أَنْ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا » الاسراء . و « فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » المزمل .

ولا بد لنا من أن ننبه إلى أنه ليس مستحيلا ، ولا غريبا أن تدخل في القرآن ألفاظ من لغات أخرى . وإذا اتسع لنا مجال البحث فسنعرض لما في القرآن من ألفاظ أعجمية جاءت من اللسانين العبري والسرياني ، ومن اللسان الحبشي وغيره . وعلى هذا ، فإن قول شغالي وصاحبه من أن كلمة قرآن عبرية أو سريانية لا يرفض على إطلاقه وإنما يمكن أن يوضع في الميزان كما توضع بقية الأقوال .



ولا يسمى هذا الكلام الذي أنزله الوحي على النبي محمدا قرآنا فقط . ولكن وردت له أسماء أخرى أكثرها استعمالا في المصحف « الكتاب » . وقد وردت الكلمة مرادفة لكلمة قرآن في كثير من المواطن ، ولا تختلف في استعمالها عن تلك . . ومثال هذا : « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ

رَبِّكَ « الكهف . و « أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ « الأنعام . و « كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا
يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ « الأعراف .
ووردت في القرآن جملة « أهل الكتاب » أي القوم الذين يدينون بكتاب
نزل به الوحي .

وسمى القرآن فرقاناً . وفيه سورة تحمل اسم « الفرقان » وقد رأت
دائرة المعارف كلمة فرقان مجهولة الأصل . ولا نحسب أنها كذلك فهي مصدر
من فعل فرق ، والفرقان هو ما يفصل بين الشيئين . وسمى به القرآن لأنه
يفصل بين الحق والباطل .

وهكذا استعملت الكلمة : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ
لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . . . »

ولا خلاف في استعمال اللفظ هنا عما استعمل فيه لفظ قرآن أو كتاب .
وإن كانت الكلمة في هذه الآية لم تستعمل الاستعمال الذي يوضح تماماً
معناها اللغوي وهو الفصل والتفريق بين شيئين . . .

وسمى القرآن أيضاً الذكر . . . ففي سورة القمر : « أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ
مِنْ بَيْنِنَا » . وفي سورة الأنبياء : « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً . قُلْ هَاتُوا

يُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي . . » وفي سورة الحجر :
« وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » .

وقد اقترنت كلمة الذكر مع كلمة فرقان في نفس السورة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » .

وكما سمي الأقسام الذين نزلت عليهم كتب من السماء « أهل الكتاب »
كذلك سموا « أهل الذكر » .

ووردت في القرآن أيضا كلمة حكمة . ففي سورة البقرة « رَبَّنَا وَابْعَثْ
فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » و « كَأَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » وفي نفس السورة أيضا « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ » . وفي سورة آل عمران :
« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنَفَى
ضَلَالٍ مُبِينٍ » وفي سورة النساء « وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » وفي سورة الجمعة « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وفي هذه الآيات جميعا نرى لفظ الحكمة مقترنا بلفظ الكتاب معطوفا
عليه . ولا سبيل إلى أن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنها
مرادفة أيضا لكلمة قرآن . فقد ذكر الشافعي أن المقصود بها سنة النبي .
والمتفق عليه بين علماء المسلمين أن كثيرا من سنن النبي نزل بها الوحي ،
وعلى هذا الوجه يمكن أن يفهم قوله تعالى : « وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ » .

وقد ذكر الأستاذ مصطفى عبدالرازق باشا في محاضراته في الفلسفة الإسلامية
أن من الممكن أن تكون كلمة حكمة في اللغة العربية مرادفة لكلمة فلسفة
اليونانية ، وتتبع هذه الكلمة يهديننا إلى أصل التفكير الممتاز عند العرب .
وقد وجدت الكلمة في الجاهلية والشواهد عليها كثيرة جدا .. ومعنى
الحكمة في القرآن في أكثر الأحيان سنة النبي . ولا خلاف في تقرير هذا
المعنى . واستعملت الكلمة أيضا في القرآن بالمعنى اللغوي الذي كان معروفا
عند العرب ، وقال اللغويون الحكمة والحكم من مادة واحدة . ويرى بعض
المستشرقين أن الكلمة عبرية ومعناها في هذا اللسان : القضاء ، أي الحكم
أيضا . والحكمة في معناها العام تدل على السداد وإتقان الرأي والفعل

« وَمَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا .. »

وعبر عن القرآن أيضا بأنه آيات الله . وكلمة آية في الرأى الراجح عبرية لأنها تشبه الكلمة العبرية ot . ومن معانيها المعجزة .. وكذلك كلمة سورة تشبه كلمة Sura وهي بنفس المعنى (١) .



هذا ما يتصل ببعض الألفاظ المشهورة في القرآن .. ولننتقل بعد هذا إلى لغة القرآن . ويظهر أن الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » كان سببا في نشوء هذا العلم من علوم القرآن ، ونعنى به لغة القرآن . وقد أوردنا في مقدمة هذا الكتاب أسماء ستة كتب أوردها فهرست ابن النديم عرضت له بالبحث والتفصيل ..

وطريقتنا في تناول هذا الموضوع هي أن نورد ونلخص أهم الدراسات التي عرضت له ، ثم نذكر ما يعن لنا فيه .

وأحدث هذه الدراسات ، وأقومها إلى الآن ، ما ذكره الأستاذ الدكتور طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي . فقد أحاط في موضوعه بآراء المحدثين والتقدماء من المسلمين ، كما أحاط بآراء المستشرقين .. قال (٢) :

(١) راجع تعليقات سيل في مصحفه .

(٢) ص ٢٩ من الأدب الجاهلي وما بعدها .

أثبت البحث الحديث خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا . وإذن فلا بد من حل لهذه المسألة .

إذا كان أبناء اساميل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العاربة ، فكيف بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكًا ولا جدالا .

الحق ان القدماء والمحدثين مضطربون اضطرابا شديدا في تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ العرب . وفي تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ اللغة العربية . وهذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين على التحقيق العلمي ولا أن يمكننا من أن نضع أمامنا — في دقة وجلاء — المسألة التي يجب أن نعني بها .

فأما القدماء فقد كانوا يفهمون من لفظ العرب سكان هذه البلاد العربية ، وإن لم يتفقوا في تحديدها على ما يحدده الجغرافيون الحديثون اليوم . ولم يكونوا يفرقون بين سكان هذه البلاد في التسمية وإنما كان أهل الجنوب عربا وكان أهل الشمال عربا . ولم يكن ذلك شأن القدماء من العرب وحدهم

وإنما كان شأن القدماء من اليونان والرومان . فأهل اليمن عرب والأنباط
عرب عند أولئك وهؤلاء .

وأما المحدثون ففريق منهم يطلقون لفظ العرب كما كان يطلقه القدماء
على سكان هذا الطرف من أطراف آسيا . ولكن عند فريق منهم ميلا
ظاهرا إلى أن يتجاوزوا هذا الطرف قليلا أو كثيرا . فهم لا يكتفون بعربية
اليمنيين والحجازيين والنجديين ، ولكنهم يريدون أن يكون النبط عربا
وأن يكون البابليون في عصرهم الأول عربا . وهم كما ترى ممدون لفظ العرب
حتى يتجاوزوا به البلاد العربية الطبيعية . وهم يرتبون على هذا نتائج غريبة :
حضارة النبط حضارة عربية ، وحضارة البابليين وتشريعهم من عهد حمورابي
حضارة عربية وتشريع عربي ، واللغة العربية تتسع وتضيّق بمقدار ما تتسع
البلاد العربية وتضيّق ، وبمقدار ما يتسع الجنس العربي نفسه ويضيّق .

ثم يمضى الأستاذ في ذكر الفروق بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال ،
أو كما يقول لغات الجنوب ولغة الشمال . ويورد بعض النصوص التي كشفها
الأستاذ جویدی من اللغة الحميرية وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جداً
عن اللغة الحجازية القرشية التي نعرفها . ومثال هذا النص الذي يقول :
« وهم واخهو بنو كلبت هقنيوإل مقه زهرن ذن فرندن حجن وقههمو
بمسألهو لو فيهمو وسعد هو نعمتم » .

ومعناها « وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب اعطوا المقه (اسم إله
في هران) هذا اللوح لأنه أجابهم عن سؤالهم وسلمهم وساعدهم بنعمته » .
ثم يتدرج من هذا البحث الطويل إلى قوله :

إن القرآن الذي تلى بلغة وإحددة ولهجة واحدة هي لغة قریش ولهجتها .
لم يكدهم يتناولوه القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات
فيه وتباينت تباينا كثيرا ، جد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه ،
وأقاموا له علما أو علوما خاصة . ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف
فيما بينها اختلافا كثيرا في ضبط الحركات سواء أكانت حركات بنية
أو حركات إعراب . لسنا نشير إلى اختلاف القراء في نصب (الطير) في
الآية « يا جِبَالُ أُوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أو رفعها . ولا إلى اختلافهم في ضم الفاء
أو فتحها في الآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » .. الخ ..

إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيفه النقل
وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير
حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من
قریش . فقرآته كما كانت تتكلم . فأمالت حيث لم تكن تيميل ، وقصرت
حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت أو أخفت
أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل .

وهنا وثقة لا بد منها . ذلك أن قوما من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر في غير شك ولا ريبه . ولم يوفقوا إلى دليل يستدلوا به على ما يقولون سوى ما روى في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام « أُنزلَ القرآن على سبعة أحرف » .

والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافرا ولا فاسقا ولا معتمزا في دينه ، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها . للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها . وقد جادلوا فيها بالفعل وتماروا وخطأ فيها بعضهم بعضا . ولم نعرف أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشيء من هذا .

وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن ، وإنما هي شيء وهذه الأحرف شيء آخر .

فالأحرف جمع حرف ، والحرف : اللغة . فعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف انه أنزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها ، يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل . ويفسر ذلك قول أنس في الآية : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبٌ قِيلاً » أصوب وأقوم وأهدى واحد . ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود (هل ينظرون إلا زقية واحدة) مكان « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » .

الأحرف إذن اللغات التي تختلف فيما بينها لفظاً ومادة. فأما هذه القراءات التي تختلف في القصر والمد وفي الحركة والسكون وفي النقل والإثبات وفي حركات الإعراب ، فليست من الأحرف في شيء . لأنها اختلاف في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ . وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أي على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها . واتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف والنبي بين أظهرهم ، فنهام عن ذلك وألح في نهيبهم . فلما توفي النبي استمر أصحابه يقرأون القرآن على هذه الأحرف السبعة كلٌّ يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي . فاشتد الخلاف والمراء في ذلك حتى كادت الفتن تقع بين الناس ولاسيما في جيوش المسلمين التي كانت تغزو وتربط في الثغور بعيدة عن مهبط الوحي ومستقر الخلافة . فرفع الأمر إلى عثمان فجزع له وأشفق أن يقع بين المسلمين مثل ما وقع بين النصارى من الاختلاف في نص القرآن كما اختلفوا في نص الإنجيل ، فجمع لهم المصحف الإمام وأذاعه في الأمصار وأمر بما عداه من المصاحف فحسب محواً .

وعلى هذا بحيث من الأحرف السبعة ستة أحرف ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الذي نقرؤه في مصحف عثمان ، وهو حرف قريش ، وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه : فمد بعضهم وقصر بعضهم ، ونغم فريق ، ورقق فريق ، ونقل طائفة وأثبتت طائفة .

ولقد حاول بعض القراء والرواة أن يعينوا هذه اللغات التي أنزل عليها القرآن فقالوا : خمس من عجز هوازن واثنتان لقريش وخزاعة . ولكن الثقات لم يقبلوا هذا النحو من الكلام وأعرضوا عنه إعراضاً .
ثم أورد الأستاذ ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه .



وكلام الطبري في هذا الموضوع هو الحلقة الثانية من سلسلة بحثنا في موضوع لغة القرآن لأنه من أقدم البحوث الموجودة بين أيدينا ، وقد عرض في تفصيل واستنارة لما نحن بصدده .

قال ابن جرير ما ملخصه : أن قوما من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هي سبعة معان جملتها : الأمر والنهي والوعد والوعيد والجدل والتقصص والمثل . ولكنه يعارض هذا ويقول إن الأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن ، وذكر أن أصحاب رسول الله تماروا في تلاوة بعض القرآن فختلفوا في قراءته دون تأويله « وأنكر بعض قراءه بعض مع دعوى كل قارئ منهم قراءة منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه ما قرأ بالصفة التي قرأ . ثم احتكموا إلى رسول الله ، فكان من حكم رسول الله بينهم أن صوب قراءة كل قارئ منهم على خلاف قراءة

أصحابه الذين نازعوه فيها . وأمر كل امرئ منهم أن يقرأ كما علم حتى خالط قلب بعضهم الشك في الإسلام لما رأى من تصويب رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة كل قارئ منهم على اختلافها ، ثم جلاه الله عنه ببيان رسول الله له ان القرآن أنزل على سبعة أحرف .

وعرض الطبرى لنقطة هامة جدا وهي هل نزل القرآن بلغة واحدة أم نزل بسبع لغات مع اتفاق المعنى ، واختار أنه نزل بالسبعة المذكورة التي يوضحها المثال في لفظ هلم ، يقال بدله أقبل وتعال ، والى وقصدى ونحوى وقربى ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعانى وإن اختلفت بالبيان به الألسن .

وعرض لنقطة أخرى لا تقل أهمية ، وهي الرد على سؤال المستفسرين ، فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه ، وأمر بالقراءة بهن ، وأنزلهن الله من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم .. أنسخت فرفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتها الأمة ؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه أم ما القصة في ذلك !! .

وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المخرجة جوابا بارعا فقال :
لم تنسخ الأحرف الستة فترفع ، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها ، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت في قراءته وحفظه بأى تلك

الأحرف السبعة شاءت ، وضرب لها مثلاً في الفقه : إذا حنث موسر في يمين
فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات إما بعق أو إطعام أو كسوة . فكذلك
الامة أمرت بحفظ القرآن وقراءته وخيرت في قراءته بأى الأحرف السبعة
شاءت . قرأت . ولعله من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ،
قراءته بحرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية . ولم تحضر قراءته
بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به .. ثم أورد الطبرى أنباء
ما حدث في أيام أبى بكر وعمر وعثمان مما سنفصله عند حديثنا عن جمع
المصحف .



هذا رأى ابن جرير الطبرى ، وهو يذهب أيضا إلى أن الأحرف السبعة
هى اللغات السبعة ..

وبحث آخر للسيوطى فى الإتيان ، لا بد لنا من تلخيصه ..
بدأ السيوطى فأكد صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابيا
ذكره . ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق من صحته فطلب من المسلمين وهم
مجمعون فى المسجد أن يقف منهم من سمع هذا الحديث فوقف من فى المسجد كلهم
فقال : وأنا أشهد معهم ..

وانتقل السيوطى إلى بحث الأقوال التى قيلت فى هذا الحديث ، فإذا هى

نحو أربعين قولاً .. وبدأ فأضاف اشكالا إلى الاشكالات الموجودة في هذا الموضوع فقال : إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الأحاد كما يطلق السبعون في العشرات ، ولا يراد العدد المعين . ثم أخذ يسرد الأقوال فمنها أنها القراءات السبعة ، ولكنه رد هذا القول بأن في القرآن آيات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ومنها ما يقرأ على أقل . ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ) . ومنها ما ذكره الطبري من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني . وذكر الطحاوي أن ذلك كان رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الخط . ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ . وضرب مثلا لهذا أن عبد الله بن مسعود كان يعلم رجلا القرآن ، فتلا عليه (طعام الأثيم) ، فقال الرجل طعام الأثيم فردها عليه ، فلم يستقم لسانه بها . فقال أنتستطيع أن تقول طعام الفاجر .. قال نعم . قال فافعل !!

وقول آخر ذهب إليه كثير من العلماء مثل أبي عبيد وثعالب والزهرى ، وهو أن الأحرف السبعة هي لغات سبعة ، فلما قيل لهم ان لغات العرب أكثر من سبعة أجابوا أن المراد هو أفصحها .

ورويت عن ابن عباس الرواية التي أوردتها كتاب الأدب الجاهلي من تعيين القبائل السبعة التي كانت أحرف القرآن بلسانها .

إلا أن ابن قتيبة يرفض أسماء هذه القبائل ، ويقول إنما هي بطون من قريش وحدها بدليل قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » ولأبي عبيد رأى قيم وهو أن في القرآن سبع لغات متفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . أى أن في القرآن ألفاظا وجملا مما كانت تعرف هذه القبيلة وهذه القبيلة .

ورأى آخر لا يقل قيمة لأبي شامة ، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش ثم أتيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والاعراب . ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغة إلى لغة أخرى المشقة ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد . وقيد البعض هذا النقل بما سمع عن النبي عليه السلام .

ومضى السيوطي يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها ثم أنهى كلامه بقوله : وقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبعة وهو جهل قبيح .



وقبل أن نقول كلمتنا في هذا الموضوع الذي كثر حوله الخلاف واشتد فيه جدل القدماء نرجع — كعادتنا — إلى المصحف لنرى إذا كان من بين آياته ما يلقى ضوءا على الأحرف السبعة أم لا ...

نقرأ في سورة فصلت « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » وفي نفس السورة « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا ... »

ونستخلص من الآيتين أن القرآن نزل باللغة العربية لقوم يعلمون هذه اللغة . فهو لم ينزل بلغة يستغلق فهمها على العرب ، وإنما كانت آياته وسوره واضحة مفهومة مفصلة لسامعيها .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية . ففي الزخرف « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » وفي سورة يوسف نفس الآية تقريباً . وفي سورة طه « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » وفي سورة الشعراء « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وفي سورة الزمر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ » وفي سورة الدخان « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

وتأكدت عربية القرآن في سورة النمل « وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِينَ يُنَادُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » وفي سورة الأحقاف « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً . وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ » .
فهذه الآيات صريحة الدلالة على أن النبي كان يتلو القرآن باللسان العربي

المبين الذي يعلمه هو . وقد حرصت آيات كثيرة — كما رأيت — على تأكيد هذا المعنى ...

وهنا تخطر على الذهن أسئلة منها .

ما هي اللغة العربية التي كانت معروفة قبل ثلاثة عشر قرنا وما حدودها؟ هل كانت هناك لغة عربية مبينة ، وأخرى غير مبينة تجنبها القرآن ولم يعبر عن معانيه بها ؟

هل كان يعرف النبي لغة غير لغة قريش الحجازية المسكية التي نراها في القرآن ، وفيما صح من الأحاديث ؟

ماشأن هذه الآيات التي تتحدث عن اللسان العربي وعن اللسان الأعجمي وتؤكد أن لسان النبي عربي ، وأن القرآن نزل بلسان النبي ، لا بلسان أعجمي .. وما هذا اللسان أو هذه الألسنة الأعجمية التي يتحدث عنها القرآن ؟ والإجابات على هذه الأسئلة جميعا ليست مهلهة ميسورة لنا ، أو لغيرنا . ذلك أن أبحاث العلماء القدماء والمحدثين لم تتفق على رأى قاطع في كثير من هذه النقاط يمكن الاطمئنان إليه .. ومع كل فسنحاول أن نبسط القول في هذا الموضوع جملة واحدة ، وعسى أن نوفق إلى حل بعض المسائل التي سبقت الإشارة إليها .

ومهما اختلف الباحثون ، فقد أصبح واضحا جليا أن اللغة العربية في

الجاهلية لم تكن لغة واحدة ، يتفق نطقها و صرفها ونحوها . فبعد أن كشف الأستاذ جويدى عن نصوص اللغة الحميرية ، وأثبت اختلافها التام عن اللغة القرشية التي نعرفها اليوم فى بنية ألفاظها وفى تركيب جملها ، لم يعد هناك شك فى أن جزيرة العرب كانت مستقر شعوب لا شعب واحد ، وكانت هذه الشعوب تنطق بلغات كثيرة قد تتفق بينها بعض الألفاظ كما تتفق اليوم بعض ألفاظ اللغة الفرنسية والانجليزية ، ولكن كل لغة منها قائمة بذاتها مستقلة استقلالاً « لا شك فيه » ولم تكن الحميرية هى لغة الجنوب فقط ، وإنما كانت هناك لغات أخرى مثل السبئية والمعينية .. ولم يكن العلماء بعد الإسلام بغافلين عن هذه الحقيقة ، فقد تنبهوا ، ونهبوا إلى اختلاف السنة الجنوب عن لسان قریش . وقد عبر أبو عمر بن العلاء عن هذا المعنى فى وضوح تام . وإذا كان هذا هو شأن لغات الجنوب حيث وجدت دول ثابتة ، وقامت حضارات بقيت آثارها إلى اليوم ، فماذا كان شأن الخليج الفارسى الذى يسمح موقعه بأن تنشأ فيه حضارة وأن يستقر فيه سكان لهم استقلالهم ويخضعون لما تخضع له الشعوب الأخرى من تأثر بالبيئة ، ونقل عن الشعوب المجاورة . إن ما يصدق على اليمن يصدق أيضا على البحرين ، وما يصدق على هذه يصدق على الحجاز ، وما يصدق عليها جميعا يصدق على شمالى الجزيرة حيث كان يقيم المناذرة والنساسنة .

وإذن فنحن حين نتصور الجزيرة العربية بقعة من الأرض لها حدود واضحة ، نخطئ إذ نتصور أن شعبا واحدا له لسان واحد كان يسكنها .. وإنما كانت تقيم في جزيرة العرب شعوب ، فلنسمها الشعوب العربية رعاية لاسم شبه الجزيرة ، ولكن لا ينبغي أن نخذعنا هذه التسمية في أمر اللغة التي ينطق بها هؤلاء جميعا ويتخاطبون بها ..

فإذا نحن أقفنا في الحجاز مدة من الزمان ، وأقفنا في مكة بصفة خاصة . فانا نجد هذه القرية تدير حركة تجارية واسعة تمتد إلى كل وجه من وجوه الجزيرة ، فتوافلها تسير إلى الشمال وتتصل بنصرانية بيزنطة ، وتعلم من شأن هذا الدين شيئا غير قليل . وتسير أيضا إلى الشمال الشرق وتتصل بمجوسية فارس وتعلم عن دينها وآدابها ما يسمح لأحد أهل مكة أن يجلس في الكعبة ويقص أحاديث رستم واسفنديار ليعارض بها القرآن . وهذه الرحلات إلى الشمال كانت وسيلة لنقل التجارة كما كانت وسيلة أيضا لنقل كثير من الألفاظ والتعبيرات باللغات التي كانوا يتخاطبون بها هناك وهي اللغة الفارسية واللغة اليونانية القديمة — وربما الرومانية — واللغة السريانية واللغة العبرية .. وذلك أن اتصال الحجاز وأهل مكة باليهود كان أقوى من غيره من الاتصالات . فقد كان يسكن اليهود غير بعيد من مكة ، ويقيمون في أماكن

تصعد شمالا حتى فذك وأم القرى وهو طريق من طرق التجارة الذى تنزل فيه القوافل وتمير يهود هذه البلاد وتمتار منها

هذه رحلات الشمال ، وما يقال عنها يقال أيضا عن رحلات الجنوب . ولم يقتصر الأمر على رحلات أهل مكة إلى هذه الأماكن جميعا ، وإنما تجاوزه إلى أن يقيم في مكة ناس من الفرس واليونانيين وأقباط مصر وأهل الحبشة وأهل الجنوب وغيرهم . ومن المؤكد أن هؤلاء القوم الذين حملتهم ظروف شتى على الإقامة في مكة كانوا يقيمون فيها وأستهم معهم ، وكان اتصالهم بأهل هذه القرية يضطرهم إلى تعلم لغتها العربية القرشية كما ينقل إلى لسان المكيين ألفاظا غير قليلة من هؤلاء الذين يقيمون بينهم

فإذا صح لدينا هذا كله — وهو صحيح — فمن السهل أن نتصور أن لغة المكيين كانت تمتاز عن لغة بقية الحجاز بوجود هذه الألفاظ الكثيرة فيها ، التى تستعين بها فى تحديد المعانى وفى وصف أشياء لا عهد لسكان القرى الأخرى فى أطراف الحجاز وفى نجد بها . ومن السهل أيضا أن نتصور إمكان انتقال قليل من هذه الألفاظ إلى القبائل الأخرى تبعا لحركة الحجيج كل عام الذى كان ينفد إلى مكة وينصرف منها ليعود فى عام قابل .

ومن هنا يمكن أن نقرر أن أهل مكة عرفوا لغات أجنبية إلى جانب لغتهم الأصلية ، وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التى تنتقل إلى مكة من الأجانب المقيمين بها ، أو تنتقل إليها مكة فى متاجرها .

وقد كونت هذه الرحلات وهذه الاتصالات إلى جانب التأثير اللغوي ثقافة غير هينة ، كما وجدت حركة تدوين وقراءة .



هذا هو شأن مكة ولغة أهلها . ورسول الله قد نشأ في مكة ، وتأثر في حياته الأولى بما كان يتأثر به أهلها من ظروف شتى . وكان رسول الله يسافر إلى الشمال ، وكانت له قرابة في بني النجار الذين يقيمون في يثرب حيث يستقر اللسان العبري والسرياني مع اليهود المقيمين هناك . ولم يقل أحد ان رسول الله لم يكن يعلم شيئاً من أمر هذه اللغات التي تأثرت بها مكة ، وأمر هذه الثقافات التي ذابت فيها .

بل أكثر من هذا ، فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله وهو في مكة بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها ، وكان يزورهم ويطيل صحبتهم .. فقد روى عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانتهما ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهما فيقوم فيسمع منهما .. وروى عن ابن اسحق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة — غلام نصراني يقال له جبر — عبد لبعض بني الحضرمي . وعن ابن عباس أن النبي كان يزور — وهو في مكة — أعجمياً اسمه بلعام ، وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده . وفي رواية

أخرى أن غلاما (كان لحويطب بن عبد العزى) قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب ، وقيل هو جبر ، وقيل هما اثنتان جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل . فسكان رسول الله إذا مر عليهما وقف يسمع ما يقرآن .. الخ .

وإذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة ، وكان يفهم ما يتلى عليه .. وقد ورد فيما ذكرنا قبل من آيات القرآن أن المشركين كانوا يتهمون النبي بأنه يأخذ هذا القرآن عن العجم ، فرد عليهم يبطل قولهم : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذين يُلقِدُون إليه أئجَمِي . وهذا لسان عربي مُبين » .



وقد نزل القرآن باللغة العربية القرشية التي ذكرنا أن كثيرا من ألفاظ اللغات الأخرى ، ولغات القبائل المجاورة ذابت فيها . وقد فهم الصحابة القرآن إجمالا ، ولكن ألفاظا غير قليلة استغلقت عليهم ، بل إن بعضها لا يزال مستغلقا علينا إلى اليوم على الرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا . وقد ذكرنا في مقدمة الكتاب أن عمر بن الخطاب لم يفهم كلمة « أب » وله العذر ، فهي كلمة حبشية ، وقد ذكرنا في باب لغة القرآن بعض الألفاظ التي تشبه ألفاظا سريانية وعبرية ، وليس لها أصل عربي

واضح . ووردت روايات عن ألفاظ في القرآن لم يكن بعض الصحابة يفهمونها لأنها مستعملة عند بعض القبائل وليست مستعملة عند قريش . ومن هذا ما روى عن ابن عباس أن اعرابيين اختصما لديه في بئر فقال أحدهما (أنا فطرتها) وعارضه الثاني . قال ابن عباس : ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى : « فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

وروى عن ابن عباس أيضا أنه لم يكن يفهم معنى الآية : « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » حتى سمع فتاة من اليمن (بنت ذى يزن) تنادى زوجها تعال أفاتحك تقصد أحاككك .. وروى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن معنى الآية « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » فقيل له تنقص لهم ..

وروى عن ابن عباس أيضا قال : كل القرآن أفهمه إلا أربعا غساين وحنانا وأواه والرقيم . وإذا صح لابن عباس أن يجهل الغسلين والحنان ، فلا عذر له في جهل أواه !! . وهذه الرواية وغيرها لأنسوقها على أنها مقطوع بصحتها ، ولكن لكي ندل على أن في القرآن ألفاظا غير قليلة أغلق فهم على الصحابة ، حتى ان أبا بكر قال : (أى سماء تظلنى وأى أرض تظلنى ان أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم) .

وقد ذكر ابن النقيب فى خصائص القرآن أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شئ كثير .

ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون إلى وجودها في القرآن

ما يأتي :

| | |
|--|--|
| أب - حبشية | استبرق - يونانية |
| أخلد (إلى الأرض) - قالوا عبرية | ابلقى (ماءك) - قالوا هندية أو حبشية |
| اسفار - سريانية أو نبطية | الأرائك - حبشية |
| أليم - اى موجه قالوا زنجية أو عبرية | اصر : اى عهد - نبطية |
| الاواه - الموقن بالحبشية | أواب - اى المسبح بالحبشية |
| بعير - عبرية | بطائنها - اى ظواهرها بالقبطية |
| الجبث - اسم الشيطان بالحبشية | تنور - فارسية |
| حصب - بمعنى حطب في الزنجية | جهنم - يونانية أو فارسية |
| دينار - فارسية | حواريون - أى غسلون بالنبطية وتنطق في النبطية هوارى |
| رهوا - سهلا بالسريانية | دزى - أى مضىء بالحبشية |
| سجيل - فارسية | الرس - أى البئر باليونانية |
| سندس - فارسية وهندية | السجل - الكتاب بالفارسية |
| الطاغوت - الكاهن بالحبشية | سرياً - قيل سريانية ونبطية ويونانية |
| عساق - المنتن البارد بالتركية | الصراط - الطريق بلغة الروم |
| الفردوس - البستان بالرومية | عدن - السكروم والأعشاب بالسريانية |
| القسطاس - الميزان | غيبض - اى تقص بالحبشية |
| كافور - بالفارسية | القسط - العدل |
| كورت - أى غورت بالفارسية | قسورة - الأسد بالحبشية |
| مرقوم - مكتوب بالعبرية | كفلين - أى ضعفين بالحبشية |
| مناص - فرار بالنبطية | مشكاة - الكوة باللغة الحبشية |
| ناشئة - ناشئة الليل أى قيام الليل بالحبشية | منسأة - عصا بلسان النبط |
| وزر - الملجأ بالنبطية | المهل - الزيت بلسان البربر |
| | هونا - يمشون على الأرض هونا أى حكاء بالسريانية |
| | هيت لك - أى هلم بالقبطية |

ياقوت - بالفارسية
يسن - لإنسان - أو رجل بالحبشية
يعهد - أى يوضح باللغة البربرية
الم - البحر بالسريانية أو القبطية
يجور - يرجع بالحبشية
القوم - الحنطة بالعبرية

وقد أورد السيوطى هذه الألفاظ وغيرها فى إتقانه كما أورد مئات الألفاظ وردت فى القرآن بغير لغة الحجاز ، ومنها لغات اليمن ، وقد نصَّ على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات . فقد ذكر مثلاً أن أسطوراً بلغة حمير تعنى الكتاب وعلى هذا يفهم قوله : « كِتَابٌ مَسْطُورٌ » وذكر أن اللهو بلغة اليمن المرأة . وعلى هذا تفهم الآية « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوْا » . وذكر مثلاً من كلمات الجنوب نقب ، وهور . الخ .

وقد شغف علماء المسلمين بتتبع ألفاظ القرآن وغيره ، وذكر السيوطى أسماء كثيرين ألفوا فيه . . والطريقة التى كان يتبعها هؤلاء المؤلفون هى أن يحاولوا إيجاد أصول عربية لكل لفظ ، بأن يوجدوا له فعلاً . فكلمة سورة من سائر . الخ . . وذلك لأنهم لم يكونوا يعلمون هذه اللغات التى كانت سائدة ومنتشرة فى وقت النبى ، والتى حصرها الفتح الإسلامى فى أضيق نطاق أو أماتها . . مثل ما صنع فى لغات شبه جزيرة العرب

ترى ما الذى يمنع ، وقد صح لدينا أمر الألفاظ القرآنية والمصادر العديدة التى جاءت منها ، أن تكون الأحرف السبعة ، هى هذه اللغات العديدة التى ذابت فى لغة قریش والتى علم النبى بعضها والتى تضمنتها ألفاظ القرآن ؟ !!

انا نرجح أن هذا هو الصواب في شأن الأحرف السبعة فهي تشير الى
الفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها القرآن ، منها الفارسية واليونانية
والآرامية والسكندانية والحبشية والحيرية والعبرية والسريانية والمصرية
وكلها أضيفت إلى لغة قريش ، فقوتت من شأنها ، وأزالت الركافة والغثاة
التي كانت موجودة في لغة القبائل الأخرى التي كانت تغد الى الحج ، وهي
التي تلتزم حروفاً ببدل حروف مثل إبدال كاف المؤنث شيئاً ، فيقولون
(كتابش) بدل كتابك (قبيلة قيس) . ومثل الذين لا يستطيعون النطق
بالسين فيستبدلون بها بقاء فالناس عندهم النات (وهم قبيلة تميم)

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة ، والتزم الاعراب في أواخر
الكلمات جميعاً ، ولم يكن ملتزماً في كثير من اللغات الأخرى ، وعرف النبي
وهو متلقى الوحي ، ومعلم القرآن الأول ، تفسير ما أنزل عليه كله . وما سأله
عنه أصحابه كان يخبرهم به . . ولعلمهم كانوا يتحاشون سؤاله في كثير من
الألفاظ ، بدليل جهل كبارهم بها بعد وفاته ونهيمهم عن التكلف والتعمق ،
أى البحث في معنى كل لفظ ، والتنقيب وراءه . .

وليس هذا الذي نقول في أمر ألفاظ القرآن ؛ وإنما هي الأحرف السبعة
قولاً شاذاً لم يقل به أحد وإنما قال به كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام
وألعب ، وأبو حاتم السجستاني وغيرهم ، وقد أورد القرطبي دفاعاً حاراً عن
هذا الرأي معارضاً به الذين يقولون إن القرآن نزل بسبع لغات مختلفة ، فكان

جبريل (فيما نقل السيوطي) ينزل بالآية بلغة قريش ثم يتلوها باللغات الست الأخرى أى يترجمها إلى هذه اللغات !!

ورأينا هذا يحتاج الى دفاع عنه حتى يثبت ويتقرر في الأذهان .
وأول ما نقول فيه ، انا نريد أن نسأل من اختاروا القول بأن القرآن نزل بسبع لغات متفرقة ، كيف يكون الحال لو أن البحث أدى الى الكشف عن وثائق تظهر هذه اللغات الست الباقية ، هل كان كل منها يعد قرآناً وهل يمكن لمعجزة البلاغة القرآنية إذا نقلتها من اللغة المعروفة اليوم الى لغة أخرى ، أن تظل كما هي في بلاغتها وروعيتها ، وتسميها قرآناً ؟ !

يقولون لا . ليس المراد لغات كاملة بنحوها وصرفها وأصولها وفروعها مثل ما هو الحال مثلا في اللغة العربية واللغة اللاتينية ، ولكن هذه الألفاظ التي تترادف ويمكن أن يوضع لفظ منها مكان لفظ ؟ !!

وهذا أيضاً قول بغيض ، يدل على تمسك بأسطورة عتيقة جاء الوقت لهدمها ، وهى أنه اللغة العربية كثيرة المترادفات إلى حد الإزعاج ، حتى ليحكى عن الأسد عشرات الأسماء ، وعن كل لفظ مترادفات له لا حصر لها ولا عد . .

نقول ان هذه الأسطورة يجب ان تزول الى الأبد احتراماً للغة العربية نفسها .
فهم يقولون في الأحرف السبعة لكلمة «هلم» ، التي يمكن أن يكون القرآن قد نزل

بها إنها : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، وقصدى ، ونحوى ، وقربى . .
من قال ان دلالة كل لفظ من هذه الألفاظ السبعة يتفق في مدلوله مع الباقي ؟
من قال ان لفظ (قربى) يدل على المعنى الذى يدل عليه (الى) ؟ .. فى الى
معنى النداء مع شيء من اللفظة أو الاستغاثة . أما قربى فهى دعوة إلى أن يكون
شيء أو شخص بقرب آخر . فمن قال ان هذا المعنى هو ذلك ؟ . ومن قال إن
(تعال) تدل فى معناها على ما تدل عليه (نحوى) ؟ إني أستطيع أن أقول
لك (تعال نحوى) فأفيد معنى غير الذى تفيده كلمة (تعال) وحدها .
ان شيئاً من الفطنة والتفكير السليم يدلان على أن اللغة العربية كثيرة الألفاظ
ولكنها ليست كثيرة المترادفات . وما حاجة قريش الى أن تستعير من
هوازن لفظاً عندها وتستعمله ، إنما تحتاج من هوازن وغيرها إلى لفظ يؤدي
معنى غير معنى اللفظ الذى تستعمله . . وهكذا .

واذن فمن الخطأ كل الخطأ ان نقول ان قرآنا نزل لكي يكون
معجزة نبي ، ثم نقول إنا قادرون على أن نبدل لفظاً مكان لفظ لأن لدينا
الكثير من الألفاظ . ولا يكفي أن يقال انما كان ذلك برخصة من النبي ،
فهو وحده الذى يستطيع إجازة هذا اللفظ مكان ذلك ، أو يقال ان جبريل
كان ينزل بسبع لغات معاً . فهذه الروايات لا تثبت للنقد ، وإلا لاحترمنا
الرواية التى تقول عن ابن مسعود إنه كان يعلم عربياً القرآن ، فتعذر عليه

نطق لفظ أئيم فقال له قل مكانه فاجر . ذلك أن الأئيم غير الفاجر ، ثم انه إذا جاز جدلاً لابن مسعود أن يبذل هذا التبديل فهل هو جائز لغيره ؟
استمع مثلاً إلى هذه الآية :

« لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا » ثم نقرأها على الأحرف التي يقولون عنها ، هكذا (للذين آمنوا أمهلونا) و (للذين آمنوا أخرونا) و (للذين آمنوا ارقبونا) . ولترك القارئ يدقق النظر قليلاً ويعن الفكر ، ويرى هل يتفق معنى هذه الآيات ، هل يبقى لها مكانها من الإعجاز وهي بهذه الكثرة !
واسمع الآية الأخرى :

« كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » و (كلما أضاء لهم مروا فيه) و (كلما أضاء لهم سعوا فيه) . . من قال ان مشى ، بمعنى مر ، وانهما معاً بمعنى سعى !
الأحرف السبعة اذن شيء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات ، وأدنى إلى الصواب في توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن الكثير من الألفاظ الأعجمية التي دخلت إليه وإلى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه الجزيرة .



وسيقولون : وما شأن هذه الأحاديث التي تروى عن اختصاص بعض الصحابة لأن بعضهم كان يقرأ قراءة لم يسمعهما صاحبه ؟ .. ومن هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال :

(كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر ، فقرأ قراءة سوى صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه . ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه . فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسّن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما . فسقط في نفسي من التكذيب (حدث في نفسه شك) ولا إذ كنت في الجاهلية . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني ضرب في صدري ففضضت عرقاً ، وكأني أنظر إلى الله تعالى فرقاً . فقال يا أباي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف . فرددت إليه أن هون على أمتي ، فرد إلى الثانية أن اقرأه على حرفين . فرددت إليه أن هون على أمتي . فرد إلى الثالثة أن اقرأه على سبعة أحرف . ولك بكل ردة رددتها تسألينها فقلت اللهم اغفر لأمتي ورددت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام .

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها . فكذت أن أعجل عليه . ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ، فحسنت به رسول الله فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله أرسله . اقرأ . فقرأ القراءة التي سمعته

يقراً . فقال رسول الله . هكذا أنزلت ثم قال لي اقرأ . فقرأت . فقال هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف . »

وغير هذين الحديثين أحاديث كثيرة ، تدل على اختلاف الصحابة في قراءة القرآن أيام النبي ، واجازة النبي لهذه القراءات . إلا ان أحد هذه الأحاديث الكثيرة - ويروى عن ابن مسعود - يقول انه سأل رسول الله في شأن هذه القراءات التي يسمها فتغير وجهه وقال : (إنما أهلك من قبلكم الاختلاف) .

والتوفيق بين هذه الأحاديث الكثيرة ، التي تكاد تتفق في معناها ، وما ذكرنا من تفسير للأحرف السبعة عسير . ولكن لتفهم الأحاديث على أي وجه شاء الناس ، أما الذي نعتقد أن من الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل في القرآن : فاختلاف الناس في شأن أحاديث جمعها المتأخرون من المسلمين ، أهون بكثير من اختلافهم في شأن نصوص القرآن . ولكننا مع هذا نجد من بين هذه الأحاديث ما ينهى عن الاختلاف الذي أهلك أمما سابقة . والنهي عن الاختلاف معناه الدعوة للتوحيد . . وما نقول في شأن هذه الأحاديث إنما تشير إلى القراءات التي كان يقرأ بها هؤلاء الذين ورد ذكرهم تبعا لتغير لهجات القبائل المختلفة من مد وقصر وإمالة وإشمام وإدغام ، أو أنها تشير إلى تفسيرات لبعض ألفاظ أبياح النبي في ظرف من الظروف

التلاوة بها لبعض من سمعها منه تيسيرا وتسهيلا ، وقد مر بنا كثرة الألفاظ
الأعجمية في القرآن ، وكثرت الألفاظ العربية المستعارة من قبائل غير قبيلة
قريش .

ويشبه هذا ما تذكره كتب القراءات ، من أنه بعد القراءات السبع
توجد القراءة الشاذة . والقراءة الشاذة هي أن بعض الصحابة والمفسرين
أضافوا إلى بعض الآيات ألفاظا توضحها مثل قول عائشة وحفصه (والصلاة
الوسطى .. صلاة العصر) فإضافة الجملة الثانية من باب التوضيح . ومثل
قراءة جابر ، فإن الله بعد إكْرَاهِيَنَّ (لهنَّ) غفورٌ رحيم . بل إن من
القراءات الشاذة أشياء تبعث على الضحك كأن يكتب أحد القدماء على
هامش مصحفه تفسير كلمة ، ويذكر بجوارها (قاله حسن) ، فيأتي مقرئ
متأخر ، ويضيف الجملة كلها ، ويقراها مع القرآن .. هذه القراءات الشاذة ،
مع ظهور تنافرها بين النصوص القرآنية كانت موضوع خلاف بين العلماء .
فمنهم من منع القراءة بها ، مثل الشافعي والقشيري وابن الحاجب . ومنهم من
أجاز القراءة بها مثل القاضي أبي الطيب والحسين والرافعي .

فهل يجوز أن نفهم اباحة النبي بعض هذه القراءات مثلما أباح بعض
المتأخرين قراءات أخرى ظاهر منها الشذوذ ، وإن فيها ما لم ينطق به النبي
وما لم ينزل به وحى السماء !! . هؤلاء نحن وقفنا عند الأحاديث التي تروى ،
واضطررنا إلى أن نلتمس لها التفسير والتأويل .



وخير ما نختم به هذا الفصل قوله تعالى :

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » الأنعام .

وقوله : « وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ

وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » .

وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .



فوائح السور

ويتصل بعض الشيء بما ذكر عن لغة القرآن ، هذه الحروف التي تبدأ
بها بعض السور مثل حم . . كهيعص . ن . المص . . الر . . الم الخ . .
ما شأن هذه الحروف ، وما قصتها ؟ !
أما الزمخشري فيقول في كشفه :

فيه أوجه ! ! أحدها وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السور . وثانيها
أن الله أقسم بها . وثالثها أن ترد السورة مصدرة بهذه الحروف لتكون أول
ما يقرع الأسماع .

وذكر أن عدد هذه الحروف اختلف من واحد الى خمسة للتفنن في أساليب
الكلام . وذكر أنها وردت أكثر من مرة لإعادة التنبيه
وأما السيوطي فقال : إن هذه الحروف سر من الأسرار التي لا يعلمها
إلا الله . . ولكنه نقل بعض آراء . فنقل عن ابن عباس أنه قال « ألم »
معناها أنا الله أعلم . (المص) معناها أنا الله أفضل . (الر) معناها أنا الله أرى

وروى عن ابن عباس أيضا في (كبيص) قال الكاف من كريم ،
والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم والصاد من صادق .
وذكر السيوطي روايات أخرى أن بعض هذه الحروف هي أسماء لله ،
مثل حرف (ق) ، (طسم) ، (الم) ، (ص) .

وأورد روايات أخرى مؤداها أن هذه الحروف صوت الوحي عند أول نزوله
على النبي ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كالأ ، وأما ، لأنها من
الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام .
فناسب أن يُؤتى فيه بالألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع الاسماع .
وذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، فأنزل الله هذا النظم
البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سببا لاستماعهم ، وسماهم له سببا
لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفتدة .



وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية في بحثها عن القرآن أن العلماء
تعجبوا كثيرا في فهم المقصود من هذه الحروف . وأن بعضهم حاول أن يحلها
كما يحل الأحاجي والألغاز كأن يؤلف كلمة الرحمن مثلا من (الر ، حم ، ن)
ووردت هذه الحروف في ٢٩ سورة كلها من العهد المسكي إلا ابتداء
سورتي البقرة وآل عمران فقد ورد في العهد المدني .

وجملة الحروف التي تكررت في هذه الابتداءات أربعة عشر حرفاً .



وورد في كتاب النثر الفنى للدكتور زكى مبارك أن من مميزات القرآن « الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون ، والتي لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد . وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

ثم قال صاحب النثر الفنى : « كنت أحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو ، فعرض على تأويلاً جديراً بالدرس والتحقيق ، وفي رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هي كالحروف (A O I) التي توجد في بعض المواطن من (Chansons degeste) فهي ليست إلا (Neumes) أي إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون .

« وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار إلى ألفتها بحرف أو حرفين أو ثلاثة . وكان ذلك كافياً لتوجيه المعنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

« وفي الكنائس المسيحية بأوروبا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le Chante grégorien) وفي اثيوبيا مثلاً يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تذكر بـ « الم » في القرآن أو (A O I) في نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل (الف .
لام . ميم) فهى ليست رمزا كتابيا ولكنها رموز صوتية .
ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان
معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف
الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية . فليس بمستبعد أن
تكون فوآح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة
لبعض الترانيم الجاهلية .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين
لم يعطوه ما يستحق من العناية مع تطوعهم لعرض كثير من الفروض . ولو أنه
كان معروفا فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الاغفال .

«ومن يدري، فلعل دراسة أصول الموسيقى فى الكنائس الحبشية والشامية
فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح
والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة تقف أمام هذا الرأى بين الشك
واليقين» (انتهى كلام كتاب النثر الفنى) .

ونحن نتفق مع الدكتور زكى مبارك فى أن لهذا الرأى قيمته ، ولكنه
لم يهمل إهمالا كما قال ، إذ يقرب منه ما ذكر من أن هذه الحروف كانت
تنبئها من الوحي بقرب نزول القرآن . أى انها أصوات كان النبي يسمعها فى

باطنه ، ثم يرى نفسه قد جاشت بمعاني القرآن وألفاظه .. فإذا أضفنا إلى هذا ما ذكره الزمخشري من أنه أريد بها تنبيه الأذهان وقرعها قبل ابتداء قراءة السور كان القول قريبا من الصواب . وقد يكمله ما نقل السيوطي من أنه أريد مفاجأة العرب برموز وإشارات لا عهد لهم بها ليزداد التفاتهم وتتنبه آذانهم ونفوسهم .



القلوب وأقفاؤها

« أقفاؤها يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاؤها »

قرآن مكة وقرآن المدينة

نزل القرآن على رسول الله متتبعا للحوادث التي عرضت له في حياته ، هاديا له ، ومجيباً على أسئلته وأسئلة الناس ، متضمنا المبادئ الكبرى للدعوة الإسلامية ومنيراً الطريق أمامها .

ولم يكن النبي يقيم في مدينة واحدة حتى يقال ان القرآن نزل في هذه المدينة ولكنه تنقل في قسم كبير من قرى الحجاز وصحرائها ، وكان الوحي ينزل عليه في الإقامة كما كان ينزل عليه في السفر .

ومن يفتح مصحفه (الطبعة الملكية المصرية) يجد على رأس كل سورة ذكراً لاسمها وبياناً لمكان نزولها ، وعدد آياتها ووقت نزولها .

فمثلاً « سورة التكويد — مكة — وآياتها ٢٩ — نزلت بعد المسد »

« وسورة القلم — مكة — إلا من آية ١٧ إلى غاية آية ٣٣ ومن آية ٤٨

إلى غاية آية ٥٠ فمدنية — وآياتها ٥٢ نزلت بعد العلق » .

« وسورة محمد مدنية إلا آية ١٣ — فنزلت في الطريق أثناء الهجرة —
وآياتها ٣٨ نزلت بعد الحديد » .

« وسورة القصص مكية إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ مدنية . وآية
٨٥ في الجحفة أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل » .

« وسورة المجادلة مدنية — وآياتها ٢٢ نزلت بعد المناقون » .

« وسورة النصر نزلت بمبى في حجة الوداع فتعد مدنية وهي آخر ما نزل
من السور وآياتها ٣ نزلت بعد التوبة » .

وفي التعريف بالمصحف نجد هذه العبارة (أخذ بيان مكية ومدنية من
الكتب المذكورة وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي وكتب
القراءات والتفسير على خلاف في بعضها ..)

وترى من الأمثلة التي سقناها من قبل أن من السور ما نزل في مكة
ومنها ما نزل في المدينة ومنها ما نزل في حجة الوداع ، ومن الآيات ما نزل في
سفر من الأسفار

فما هي الفوارق الواضحة بين قرآن مكة وقرآن المدينة وقرآن الرحلات ؟
وما هي الضوابط التي تراعى في تعيينين أما كن نزول الآيات ؟

أما قرآن مكة فيمتاز بأن آياته أوفر عدداً وأقصر جملاً وأكثر التزاماً
للفغات موسيقية معينة .

ويبلغ القرآن المكي في كميته نحو ثلثي المصحف (١٩ من ٣٠) وقارى المصحف يلاحظ أن جزء تبارك مكي كله وآياته ٤٣١ . وجزء عم مكي أيضاً وآياته ٥٧٠ ، في حين أن جزءاً آخر هو جزء قد سمع مدني كله وآياته ١٣٧ فقط .

ومثال آخر يوضح الفرق بين طول الآيات المدنية بالنسبة للآيات المكية هو سورة الشعراء وسورة الأنفال . فالأولى منهما نصف جزء من أجزاء المصحف^(١) وعدد آياتها ٢٢٧ . والثانية نصف جزء أيضاً وعدد آياتها ٧٥ فقط أى نحو ثلث عدد آيات الشعراء . وذلك لأن الأولى نزلت في مكة ، والثانية نزلت في المدينة .

وقد أحصيت آيات القرآن المدني فبلغت ١٤٥٦ آية وهي تزيد قليلاً عن ربع مجموع آيات المصحف .



وقد ذكر السيوطي اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين قرآن مكة وقرآن المدينة . قال :

اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة أشهرها :
أولاً — أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل

(١) المصحف ثلاثون جزءاً وسوره ١١٤ سورة

بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار . أخرج
عثمان بن سعيد الرازي بسنده إلى يحيى بن سدم قال : ما نزل بمكة ، وما نزل
في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو مكى ، وما
نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنى ،
وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكى اصطلاحاً .

الثانى — أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة
وعلى هذا ثبت الوسطة . فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكى ولا مدنى .
وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة : مكة
والمدينة والشام . (وقيل في تفسير الشام إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا
أرجح) . قال السيوطى : ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات
والحديبية . وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

الثالث — ان المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدنى ما وقع خطاباً
لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكى
والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى
ذلك قول ، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة . وان
وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يعرف ذلك
بغير نص الرسول .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ، ما نزلت

آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت . وقال أيوب
سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ،
وأشار الى سلع .



وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المسكبي من المدني وهذه الضوابط
هي من قبيل الإحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء في مصحف عثمان بن عفان
أولاً — كل ما كان أوله : «يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا» أنزل بالمدينة وما كان أوله
«يَأْيُهَا النَّاسُ أَوْ يَابْنِي آدَمَ» فبمكة . إلا أن هذه القاعدة لا تصلح للتطبيق في
جميع القرآن فمثلاً سورة النساء مدنية وأولها «يَأْيُهَا النَّاسُ» ، وفي سورة البقرة
كذلك يَأْيُهَا النَّاسُ^(١) وسورة الحج مكية وفيها «يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُرْكَعُوا
وَأَسْجُدُوا» .

ثانياً — كل ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فانما نزل بمكة .
وما كان من الفرائض والسنن فانما نزل بالمدينة .

ثالثاً — كل سورة في أولها كلا ، أو أولها حرف تهج سوى الزهراوين
والرعد أو فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة فهي مكية . وكذلك كل سورة
فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية . وكل سورة فيها ذكر المناقنين سوى
العنكبوت فمدنية .

(١) أحصى الشيخ الحضري سبع آيات في السور المدنية فيها يَأْيُهَا النَّاسُ



ولمعرفة أما كن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التي عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الاذهان . وعندما نتحدث عن مصحف عثمان ابن عفان سنذكر رأينا في الترتيب الذي التزمه ، كما نذكر ما انتهى إليه العلماء في الترتيب التاريخي للمصحف .



أسلوب القرآن

لم يلزم القرآن أسلوباً واحداً من أساليب الأداء .
فقد ذكرنا أن آيات القرآن للمكي قصيرة ، وانها عنيفة اللهجة ، حادة
الألفاظ ، ذات تأثير خطابي يهز الأسماع والنفوس . وقد كان النبي في بدء
دعوته ، ومدة مقامه بين أعداء لا يهدأون ولا يلبنون في حاجة إلى أن يترجم
القرآنُ في أسلوبه عن حالته النفسية .

وهناك رأيان حديثان تناولتا بحث أسلوب القرآن :

أحدهما للدكتور طه حسين يقول فيه ان الكلام ينقسم إلى ثلاثة
اقسام : شعر ونثر وقرآن . وهو بهذا يرى أسلوب القرآن ينهج نهجاً خاصاً به
لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ، ولكنه قرآن ! وذلك أن القرآن عنده لا يخضع
لقواعد النثر ولا لقواعد الشعر ، ولكن له موسيقا خاصة به ، تحسبها في تركيب
ألفاظه وفي تتابع آياته .

ويعارض هذا الرأي الدكتور زكي مبارك ، ويؤكد في كتاب النثر الفني

أن القرآن نثر عربي ، بل هو أثر أدبي يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده ، ويتميز بالصفات الآتية :

أولاً — خلوه من الشعر الموزون خلواً تاماً ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر .

ثانياً — نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل تستريح عنده نفس القارئ ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام .

ثالثاً — ضرب الأمثال وسوق القصص ، وتكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة .

رابعاً — الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل ألم . حم . ص .

خامساً — نظم القرآن الغنائي .

سادساً — لا يلزم القرآن السجع . فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفاً مسجوعة من السور الكبار ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيراً ما ينتقل من السجع الى الكلام المرسل .

ووصف الاستاذ مصطفى صادق الرافعي أسلوب القرآن فقال: نزل القرآن بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وتصيره معاً . فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة ، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرج عن طبيعته . وهو في كل

جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء وبدات الأرض غير الأرض . وإنما كان ذلك لأنه صنى اللغة من اكدارها ، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها ، فجاء بها في ماء الجمال أملاً من السحاب ، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب . الخ .



وفي البحوث الطويلة التي عقدها المستشرقون عن القرآن ، يكاد رأيهم يجمع على أن القرآن هو من إنشاء النبي ، ويتحدثون عنه على أن أسلوب القرآن هو أسلوب محمد عليه السلام .

فمن هذا ما ورد في كتاب تاريخ الأديان^(١) من أن أسلوب النبي في القرآن كان أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف ، قصير العبارات ، نغم الصور ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة ، وكثيراً ما يكرر الآيات تكراراً مملاً حتى تنقلب معانيها إلى الضد . فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب حيويته الأولى ، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء مثلما تراه في تاريخه لقصة حب يوسف وزوجه بوتيفار . وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك ، وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن وأغرم بالجدل الديني مع النصارى واليهود . الخ .

(1) Manuel d' Histoire des Religions P. D. Chantepie de la Saussaye

وهذا التلخيص لرأى واحد من المستشرقين يدل على مقدار الخطأ الذى يقعون فيه ، لأنهم فى أغلب الأحيان يعجزون عن النفوذ إلى أسرار كثير من الآيات والسور القرآنية على الرغم من قههم العميق وبحمهم المتصل فى كتب التفسير . وذلك إن إدراك معانى القرآن ، لا يحتاج فقط إلى القاموس وإلى الشرح ، وإنما يحتاج قبل كل شىء إلى نفس صافية وروح مشرقة تستطيع أن تستشف ، لا المعانى وحدها ، ولكن ما وراء المعانى . وألا تقف على مدلول اللفظ وحده ، ولكن على هذا الضوء النفسى الذى ينبعث من وراء المعنى .

فلنختر سورة من السور . أى سورة ، ولتكن : إذا جاء نصرُ اللهِ
وَالْفَتْحُ ، ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجا ، فسبح بحمدي ربك
وأستغفره إنه كان توابا .

يأتى العالم الأوربى ، وكل عدته عقله ، ويعلم معانى الألفاظ ، كل واحد على حدة ، وينتهى إلى أن معنى السورة هو أن الله قد نصرك ودخل الناس فى دينك فاحمد الله واستغفره من ذنوبك فإن الله يتوب عليك .

هذا المعنى الحرفى الذى تدل عليه الألفاظ ليس كل شىء فى سورة الفتح . ذلك أننا نستطيع أن نؤدى هذا المعنى مع تغيير يسير فى الألفاظ لنرى ماذا تكون النتيجة . فلنقل مثلا :

إذا نصرك الله وأتاح لك الفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ،
فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .

إن هذا التعديل الخفيف في بعض الألفاظ ونقل لفظ من مكانه يحيل
الصورة المحكمة الرائعة التي كانت عليها سورة الفتح إلى كلام عادي تأثيره قليل
وسنذكر بعد قليل المحاولات التي بذلت لتقليد القرآن . ولكننا نسرع
هنا فنذكر أنه نسب إلى أبي العلاء المعري أنه أنشأ كلاما يعارض به القرآن ،
وقال فلتصقله الألسن في المحاريب أربع مئة سنة وعند ذلك انظروا كيف
يكون .

فهذا المعنى دقيق ، وهو أن الكلام الذي يكثر تكراره يخف على السمع
وعلى النفس ، ويبلغ من التأثير مبلغا لا يصل إليه غيره من الكلام . ولا نعلم
بين جميع الآثار البيانية شعرا أو نثرا كلما ازداد الناس له تلاوة وترديدا كلما
ازداد تأثيرا إلا القرآن . ففي اللغة العربية مثلا قصائد وأبيات من الشعر
محافظة قبل أن ينزل القرآن ، وتردها الألسن ، ولكنها لم تتجاوز على
مر القرون مستوى أى كلام من أى نوع . فكم من مرة أنشدت قصيدة
امرى القيس : قفانبك . وكم من مرة وقف عندها الناس وتأملوا فيها وعلموها
للصغار ، ولكنها لم ترتفع من مرتبتها الشعرية أمثلة واحدة .

كلام واحد ، كلما ازداد تكراره ازداد تأثيره ، هو القرآن . . ولا شئ
يشبهه في هذه الميزة بين آداب الدنيا كلها ، وبين كتب السماء وكتب الأرض .

وتقد وصل الأمر بالقرآن إلى أن أصبحت نغماته ميرانا ينتقل في حواس المسلمين الباطنة من جيل إلى جيل ، حتى انتهينا إلى أنه يكفي أن نقال آية فيها خطأ أمام شخص لا يحفظ القرآن ، ولكن له إلمام يسير ببعض سوره ، لكي يدرك أن في هذه الآية لفظا قلقا وأن من الخير مراجعة المصحف .

فقداسة القرآن ، والإقبال على حفظه وترديده طوال ثلاثة عشر قرنا ، كل هذا يجعل هناك فرقا واضحا جدا بين مسلم يحاول تفسير القرآن والتماس وجود التأثير والإعجاز فيه ، وبين أجنبي لا يحفظ ، وإن حفظ فلا يدرك إلا بعقله ولا يقبل عليه إلا كما يقبل عالم النبات بشرطه ومجهره . . هناك فرق واضح جداً بين هذا وذاك . ومن هنا كان الخطأ أسرع إلى المستشرقين وعلماء الغرب في مباحثهم عن القرآن . وكان توفيقهم كبيراً جداً كلما تناولوا المسائل القرآنية التي لا تخضع إلا لحكم العقل مثل الإحصاء والترتيب والجمع والتفريق . فأما ما اتصل بموسيقا القرآن وبأسلوبه وبإعجازه فعلمهم به قليل ، ومشوب بما رأيت مثاله من أخطاء .

وهذه القاعدة النفسية التي ذكرناها هي وجدها التي ترد على هؤلاء الذين يقولون إن النبي هو الذي أنشأ القرآن من تلقاء نفسه .

فديننا كتب الحديث ، وقد توفر المسلمون على دراستها وحفظ الكثير

منها طوال قرون وقرون . . . والمسلمون يحرسون على كلام نبيهم كما يحرسون على مصحفهم . . . فاذا صح أن النبي هو منشىء هذا القرآن وأنه منشىء هذه الأحاديث أو بعضها على الأقل ، فمن أين يأتي الفرق الواضح في الأسلوب وفي مجموعة الألفاظ وفي التأثير بين الحديث وبين الآية !

إن خصائص القرآن الأسلوبية تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن خصائص الحديث الأسلوبية . بل إن ألفاظ القرآن تختلف في كثير من الألفاظ الحديث . . . فهل يعقل أن يصدر عن شخص واحد كلامان أحدهما يخضع لقواعد معينة وتتطور هذه القواعد على مر الزمن الذي تم فيه الإنشاء مثلاً في القرآن ، والثاني يخضع لقواعد أخرى تختلف تماماً عن قواعد الكلام الأول ، وتتجه في مرتبتها البلاغية وفي درجة تأثيرها وجهة أخرى . . . ومع هذا فيقال إن صاحب الكلامين واحد ! !
ولنزد هذه النقطة وضوحاً .

خطب رسول الله في حجة الوداع فقال :

أيها الناس . . . اسمعوا مني أيين لكم فاني لا أدرى لعلي لا ألتاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . . ألا هل بلغت . اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها .

وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبداً به رباعى العباس بن عبدالمطلب
وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث
ابن عبدالمطلب . وإن ما أثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية^(١) .

وفي نفس الوقت وفي نفس المكان نزلت الآية :

« . . . الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِ
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا^(٢) » .

ويكفي ترديد ما اقتبسناه من خطبة الوداع . وما أخذناه من آية الوداع
نرى أن من المخالف لطبائع الأحياء والأشياء أن يصدر ذلك الكلام بما
فيه من نعم ومن معنى ومن أسلوب، وهذا الكلام بخصائصه كلها عن شخص
واحد . وقد أتحد الظرف والمكان الذي صدر فيه كل من الكلامين
وقد وصف النبي نفسه فقال : إنه أفصح العرب .

ووصف القرآن نفسه فقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ
خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُرُونَ » .

(١) نص الخطبة كاملاً في كتاب العقد الفريد ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١

(٢) آية ٣ سورة المائدة .

وكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن أو يتلى عليه فيبكي .
روى ابن مسعود : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ عليّ . ففتحت
سورة النساء . فلما بلغت : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » رأيت عينيه تدرقان من الدمع . فقال
حَسْبُكَ الْآنَ .



محمدي القرآن

مرّ بنا في الفصل الذي عقدهناه عن قریش والقرآن كيف أنها حاولت بكل وسيلة أن تمنع تأثر الناس من سماع القرآن ، فاصطنعت القصاص الذين يحفظون قصص الفرس لسكى يتلوها . . كما أن سويد بن الصامت عرض على النبي مجلة لقمان التي تتضمن حكمه ، فلما تلى عليه النبي آيات من القرآن تتم سويد : ان هذا القول حسن . . ثم طوى صحفه وانصرف

ولقد دعا القرآن قریشاً إلى أن تحاول محاكاته ، وأن تجتهد ما وسعها الاجتهاد في الإتيان بسورة أو آية تشبه آيات القرآن . . قال لهم في سورة القصص . .

« قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »
وقال لهم في سورة الامراء : « قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

وقال لهم في سورة هود : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

وقال لهم في سورة يونس : « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » .

وقال لهم في سورة الطور : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . قَلِيلًا تَوَاتَرًا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » .

وقال لهم في سورة البقرة : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »

وقد تدرجت دعوة التحدى كما هو واضح في ترتيب الآيات الذى اخترناه ،

فبدأ بأن طلب منهم انشاء كتاب مثل هذا الكتاب وقد وردت هذه الآية
في سورة القصص ، وكان قد نزل قبلها سبع وأربعون سورة (حسب ترتيب
نولده التاريخي) منها سور طوال مثل سورة يوسف ، وسور قصار مثل
سورة الناس .

حارت قريش في أمرها لا تدري كيف تأتي بكلام مثل هذا الكلام
ويظهر أنها حاولت أن ترد على هذا التحدى فعبزت ، ولذا نرى القرآن
يخاطبهم بما ورد في سورة الاسراء من أنهم لن يستطيعوا ، ولن يستطيع
انس ولا جن أن يأتي بمثل هذا القرآن ...

ومضى القرآن في تحديه فلم يطالب بكتاب ، ولكن طالب بعشر سور كما
في سورة هود .

ثم مضى خطوة أخرى فطالب كما في سورة يونس بسورة واحدة .
وكذلك طلب في سورة البقرة أول السور المدنية ..



تري ما الذى منع قريشا من أن تحاول الرد على هذا التحدى ؟ .. نحن
للإجابة على هذا السؤال أمام فرضين :

أولهما : انها حاولت فكانت محاولتها غير مجدية . وظهر لها أن سجع

الكهان وهو أرقى صورة من الصور النثرية عندها لا يرقى إلى مرتبة البلاغة
القرآنية . وقد ضاعت هذه المحاولات ولم تعلق بذاكرة أحد .
ثانيتها : انها عجزت حتى عن هذه المحاولة .

ويقودنا هذا الحديث إلى أن نلقى نظرة على المستوى الفكرى الذى
بلغته قریش ، وهل كان يسمح لها بإجابة هذا التحدى أم لا ؟ .

والواقع ان الإجابة على هذا السؤال عسيرة كل العسر ذلك لأن الحياة
الأدبية فى الجزيرة العربية أول ظهور الإسلام لم تؤرخ بعد تاريخاً يسمح
بالحكم عليها . فلا شك انه كان للعرب شعر ، وكان لهم نثر ، وكانت لهم خطب
ورسائل . ولكن أمة الصحراء لم تكن لتحفظ هذه الآثار إلا كما تحفظ
الرمال خطوطاً نقشت عليها .

وهناك طريقان لمعرفة المستوى الفكرى الذى كان عليه العرب عند
ابتداء الدعوة الإسلامية :

أولها — مراجعة النصوص الأدبية الثابتة من شعر ونثر التى خلفها
العصر الأموى ، وهو أقرب العصور إلى العهد الفاصل بين الجاهلية والإسلام .
وهذه نراها ممثلة فى دواوين الشعر المشهورة مثل نقائض جرير والفرزدق
وشعر عمر بن أبى ربيعة وخطب الخلفاء (ليس منها نهج البلاغة للنسوب
للإمام على فهو كتاب متأخر) .. فهذه النصوص يمكن أن تعد حلقة فى

سلسلة التطور الفكرى ، إذا عدنا منها إلى الوراء قليلا ، وأحصينا على وجه الدقة مقدار التأثير الذى أضافه الإسلام إلى العقلية العربية ، أمكننا أن نهتدى إلى ما يلقى ضوءا على هذه النقطة . وهذا الضوء يكشف لنا عن عقلية ناضجة بعض الشيء ، تستقيم نظرتها إلى الأشياء ، ويعاودرا كها عن مستوى الطفولة إلى مستوى أكثر تماسكا وأصلب عودا ..

ثانيهما — وثانى الطريقين اللذين نسير فيهما لمعرفة مستوى الفكر العربى فى فجر الدعوة المحمدية هو القرآن نفسه . فقد كان يناقش ويجادل ويدفع عن نفسه . وكان يشتد ويحتمد ويعاود صوته حتى يصفح وجه السماء . وما كان القرآن فى جداله لقريش يصل إلى هذه الدرجة من العنف الا لأنه وجد أمامه خصوما صامدين ، معاندين . ولو أنه وجد أمامه جيلا قد انحط ادراكه ، ولم يتجاوز دور الطفولة بعد ، لسهلت قيادته ، ولأمكن ادخاله فى نطاق الدعوة فى يسر وسهولة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فقد أنفق الوحى ربع قرن إلا قليلا وهو يهاجم ويدافع هذه الآراء والنظريات السائدة فى الحجاز ، التى كانت تعتمد على أصول من العقائد الوثنية واليهودية والنصرانية .. كما كانت تستنير بما ينقله المسافرون عبر الصحراء إلى بلاد الامبراطورية البيزنطية وبلاد فارس .

وإذن فنحن إزاء مجتمع حى ، قادر على التفكير .. ترى ما الذى منعه

من أن يرد على تحدى القرآن؟! وما الذى أعجزه عن أن يبذل الجهد فى
التقليد والمحاكاة أثناء حياة النبي .

لا شك انه العجز عن التشبع بالمعاني الجديدة التى كان يطرقها القرآن؟
وهنا بعض المعجزة .

ولا شك انه العجز عن الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية وطريقة
تناول الآيات للمعاني التى وضعت لها وهنا باقى المعجزة .



محاولات التفسير

ولكن هل فترت رغبة الناس بعد حياة النبي عن تقليد القرآن؟! لقد شغلت هذه الفكرة — فكرة معارضة القرآن وتقليده — أذهان معاصري النبي فلم يصلوا إلى شيء يقيم حججهم .. فلما قاربت حياة النبي عليه السلام نهايتها ، وبدأت قبائل العرب تحبس يوطأة القبضة الجديدة التي بسطت عليها ، والتي أخذت تبدل معالم حياتها . ورأت ان المقاومة المسلحة وحدها لم تكف لمنع هذا السلطان الجديد من أن يضمها تحت سيطرته ، فكرت في أن تلجأ مع السيف إلى وسيلة أخرى ، وهي أن تنشئ لها أنبياء مثل هذا النبي الذي ظهر في مكة . ومن هنا كانت حركة التنبؤ . وهي كما ترى تعتمد قبل كل شيء على نزعات قبلية ، وعاطفة وطنية تدفعها إلى عدم الخضوع لحكم المدينة ، لتنشئ هذه الزعامات ، وتطلق عليها اسم النبوة ، وليس ما يمنع من أن تصطنع لها وحيًا ، وأن ينطق هذا الوحي بقرآن .

تنبأ في هذه الفترة وهي العام التاسع والعاشر للهجرة حتى حروب الردة

مسيلة الذي ظهر باليمامة في بني حنيفة والأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن
وطليحة بن خويلد الذي تنبأ في قبيلة أسد وسجاح ذات العلم بالنصرانية التي
ظهرت في بني تغلب ، وغيرهم .

فأما مسيلة فقد زعم أن وحيا يهبط عليه من السماء يسمى « رحمن » ،
وأنه يهبط عليه في الظلام لا في وضوح النهار ، وأنه يقرئه قرآنا .

وقد روت الروايات عنه وعن غيره قرآنا زعموا أنه أنشأه . ولا سبيل
إلى الجزم بأن هذا الكلام منسوب حقيقة لمسيلة ، إذ ليس هناك ما يدعو
إلى احتفاظ ذاكرة الرواة بهذا السخف قرنين من الزمان حتى بدأ عهد
التدوين ، وإنما هذا الكلام الذي ينسب لمسيلة وغيره على أنه قرآنه هو
ما تخيل المتأخرون من القصص ان أمثال هؤلاء الثائرين يستطيعون إنشاءه
معارضة للقرآن وتقليدا .

فمن هذا الذي نسب لمسيلة أنه كان يقول « يا ضفدع يا بنت ضفدعين .
نقى ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين . لا للماء تكدرين ولا الشارب
تمنعين . . » وواضح طبعا أن هذا الكلام ليس من لغة الجاهلية في شيء ،
ومع هذا فقد خدع عنه الجاحظ أو هو يسخر منه حين يقول : لا ادري
ما الذي هيج مسيلة حتى ساء رأيه في الضفدع ..

مما قيل على لسان مسيلة : (والباذرات زرعا ، والحاصدات حصداً ،

والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزنا ،
والثاردات ثردا ، واللاقيات لقما ، اهالة وسمنا .. لقد فضلتكم على أهل الوبر ،
وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترف آووه والباغي فناوئوه الخ .

هذا هو مسيامة ، وقد قصده طلحة النمرى ، وسأل عنه قومه قائلا :

— أين مسيامة ؟ ! فصاحوا به أن يذكر أنه رسول الله . ثم قاده اليه
فخاوره قليلا ، وتبين له سخفه فقال له : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق
ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر .

وأما وحى الأسود العنسى فكان ينزل به عليه ملك اسماء « ذا خمار »
وكان رجلا فصيحاً يجيد سجع الكهان إلا أن كلامه بطبيعة الحال ضاع كما
ضاع غيره .

أما وحى طليحة فقد كان ينزل به عليه — فيما زعم — ملك اسماء
ذا النون . ثم عدل عن ذى النون ، وقال لا بل هو جبريل . ولم يعرف شيء
عن قرآنه إلا انه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول صلوا
قياماً ، فإن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح ادباركم !!

وأما سجاح فقد ادعت قرآناً ، إلا أن وحيها صمت حين لقيت مسيامة
وتزوجته ، ودفع لها الصداق ان أعفى اتباعهما من صلاة العصر . وقد ظل
بنو تميم وقتاً غير قصير لا يصلون العصر ، فقمييح بمثلهم أن يضيعوا صداق
بناتهم !!

وهكذا ترى أن محاولات تقليد القرآن في أواخر عهد النبوة وبعده بقليل
قد أخفقت تماما .



فلما تقدم العهد بالإسلام ، ودخلت الأمصار المفتوحة تحت حكم المدينة ،
وذابت في الإمبراطورية الإسلامية مذاهب وعصبيات ونزعات لا أول لها
ولا آخر . ودخلت في الإسلام عقليات جديدة غير عقلية العرب تنبه هؤلاء
المسلمون الجدد إلى بلاغة القرآن وإلى تحديه البالغ . وليس هناك ما يمنع من
أن يكون كثيرون قد حاولوا تقليد القرآن سرا ، إلا أننا لم نقف على شيء من
هذا يصح الاطمئنان إليه . . وكل ما بين أيدينا روايات عن أشخاص اتهموا
بمعارضة القرآن منهم ابن المقفع ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن
المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلاني أن ابن المقفع عند ما انتهى الى
قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » إلى قوله تعالى « وَرَقِيلَ
بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر
أن يأتوا بمثله وترك المعارضة وأحرق ما كان قد اختلقه . ويقول الباقلاني ان
قوماً ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن في كتابه « الدرّة اليئيمة » . ولم يجد

الباقلائي فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن^(١) وكان الشاعر المعروف (المتنبي) قد تنبأ فعلا في بادية السماوة ، وأنشأ كلاماً أسماه قرآناً منه قوله : والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفي اخطار ... امض على سننك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فان الله قانع بك زيع من الخد في دينه وضل عن سبيله الخ .. إلا أنه عدل عن هذه المحاولة ، وتفرغ لشعره فكان أشهر الشعراء .



ومن الذين اتهموا أيضا بهذه التهمة ، وهي محاولة محاكاة القرآن أبو العلاء المعري في كتاب « الفصول والغايات .. »
ومما ورد في هذا الكتاب :

« سبحانك مؤيد الأباد هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتهت أحدا من الأموات . وإذا هجعت لقبني قريب عهد بالمنية ، ومن قد فقد منذ أزمان . أسألمهم فيجيئون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم يحبل الحياة معلقون . لو صدق الرقاد لسكنت إلى ما ينجر عن سكان القبور ، ولكن الهجمة كثيرة الكذاب . »

ومما قاله أيضاً في كتابه هذا يناجى ربه وينذكر والده في قبره :
« أدعوك وعملي سيء ليحسن ، وقلبي مظلم لكي ينير . وقد عدلت عن المحجة إلى بنات الطريق . وأنت العدل ومن عدلك أخاف ! يا من سبيح له زرقعة الأفق وزرقعة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب ! وإن كان الدمع يطفى غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتى (شتاء) تبلان الصباح والمساء ، واجعلني في الدنيا منك وجلا لأفوز بالآخرة في الأمان . »

(١) راجع كتاب ابن المقفع للأستاذ عبد اللطيف حمزة

وارزقني في خوفك بر والدي وقد فاد بره إهداء الدعوة له بالغدو والآصال . فاهد اللهم له
تحية أبق من عروة الجذب ، وأذكي من ورد الربيع ، وأحسن من بوارق الغمام ، تسفر
لها ظلمة الجذث ويخضر أغبر السفاه ، ويأرج ثرى الأرض .. تحية رجل للقبيا ليس براج .. »
وواضح من هذه المقتبسات أن أبا العلاء لم ينشئ لنفسه قرآنا ، يعارض
به وحى السماء فهو هنا مؤمن عميق الإيمان : وان كان هذا لم يمنع من أن
يخصى عليه مثل هذا الكلام :

« أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط ومطالع سهيل ، ان الكافر
لطويل الويل ، وان العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، ومطالع التوبة من قبيل ،
تتج وما أخالك بناج »

وقد ذكر الرافعي في اعجاز القرآن : وتلك ولا ريب فرية على المعري
أراده بها عدو حاذق لأن الرجل أبصر بنفسه وبطبيعة الكلام الذي يعارضه
وما أراه إلا أعرف الناس يا اضطراب أسلوبه والتواء مذهبه وان البلاغة
لا تكون مراغمة للغة أو اغتصابا لألفاظها وتوطينا لغرائبها كما يصنع .. الخ^(١)
وذكر الدكتور طه حسين في كتابه مع أبي العلاء في سجنه^(٢) .

هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في الفصول والغايات كما ظن
بعض القدماء ؟ نعم ولا . نعم ان فهمنا في المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة .
ان فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في
الفن الأدبي فتأثره وجد في تقليده كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل

الفنية العليا . ذلك شيء لا شك فيه . فأيسر نظر في كتاب الفصول والغايات
يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها . وليس المهم أنه وفق
في هذا التقليد أو لم يوفق . بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره
بل من المحقق أيضاً أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان . ولكن المهم أن هذه
المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب وهي لا تضير الشيخ ولا تلزمه اثماً ولا حوباً .
وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدى ومحاولة الاتيان بسورة أو
سور مثل سور القرآن . فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبي العلاء . فقد كان
أشد تواضعاً من أن تبلغ به الكبرياء الى هذا الحد . وقد كان أعتل من أن
يطاول مالا سبيل إلى مطاولته ، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ
من أن يعرض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم .



وهناك آخرون غير هؤلاء الأدباء الثلاثة : ابن المقفع والمتنبي والمعري ،
اتهموا بمحاولة تقليد القرآن ومعارضته إلا أنهم لم يصلوا الى شيء إن صححت
الروايات عنهم . والغالب أن هذه التهم كانت تعلق بهم لتفوقهم في أساليب الانشاء
وتملكهم نواصيها واعتنائهم لمذهب من المذاهب الفلسفية . وسنعرض بعد
قليل لآراء بعض المتكلمين والفلاسفة من المسلمين في أسلوب القرآن وسبب
(م — ١١)

ولنلق نظرة على معناها ، فسرى أنها أنشئت لغرض واحد ، وهو تأكيد معنى الوصى ، الذى يعد أساساً من أسس التشيع ، والوصى هو على ، أى الذى أوصى النبي أن يكون خليفته من بعده . وقد عمدت هذه السورة للمتجولة إلى التصريح ، فذكرت اسم على وتحدثت عن زهادته وعبادته . ولا تعد هذه السورة من وثائق الشيعة ، وهم لا يتمسكون بها ، ولا يقفون عندها ، ففي كتاب الشيعة فى التاريخ^(١) ، فصل عن مجمل عقائد الشيعة فيه أن الله « أنزل على نبيه المعجزة العظمى - القرآن الكريم - مصدقاً غير قديم كقدمه تعالى » . فهذا الكتاب الشيعى ، لا يذكر أن القرآن نقص سورة كما يدعى المدعون . وغاية ما يذكر الشيعة فى تأييد رأيهم القائل بأن النبي عليه السلام أوصى أن يكون خليفته على بن أبى طالب ، هو تفسيرهم للآية « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ . وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » فقد ذكر الفخر الرازى أن هذه الآية نزلت فى فضل على بن أبى طالب . وذكر الزنجشى أن الآية « إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » إنما نزلت فى على بن أبى طالب وإذن فغاية ما يعتمد عليه الشيعة فى إثبات الإمامة لعلى هو تفسير لبعض آيات واردة فى صلب المصحف الذى بين أيدينا . وهو تفسير فيه خلاف إذ

(١) للشيخ محمد حسين الزين طبعة صيدا .

النص غير صريح ، وإنما يعتمد في التفسير على رواية بعض أحاديث تؤيد رأيهم .

فسورة النورين التي نحلها أحد الروافض (وهم فرقة من غلاة الشيعة) وتمسك بها المستشرقون ، إنما أنشئت لتأييد دعوى سياسية . وما يستوقف النظر فيها أن صاحب هذه السورة حاول أن يقلد القرآن ، وأجهد نفسه في هذا إجهاداً لا شك فيه . حتى لممكننا أن نقول ان سورة النورين أقرب صورة مزورة من القرآن . ولكن إمعان النظر فيها . وترديد مجملها يشعرك بالخلل في تركيب ألفاظها . فإذا أمعنت النظر في الجملة مثلاً :

« ولقد أتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين » . ترى لفظ (لك) قلقاً في مكانه لا يكاد يستقر . وتجدر نعم الجملة كله فأتراً هامداً ، لا ينتفض بهذه الحياة التي تنتفض بها آيات القرآن . وكذلك تستطيع أن تدقق النظر في بقية الجمل . فستظفر بما يريبك ، ثم بما يسخطك .



والمثال الأخير الذي نريد أن نختم به هذا الفصل هو قرآن غلام أحمد . وهذا الشخص هو آخر المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحى السماء ، وانه ينزل عليهم قرآناً كما كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام . وغلام أحمد هذا ، هندي ولد في مدينة قديان منذ قرن وبضعة أعوام . وقد ادعى أن الوحي ينزل عليه في عام ١٨٧٦ م ، فأذاع في الهند بياناً قال فيه

إنه المسيح المنتظر ، وان له كتاباً منزلاً . وقد ظهرت آية بيانه التي يدعيها في عام ١٩٠٠ ، عندما ألقى على أتباعه في مطلع هذا القرن ما أسماه الخطبة الإلهامية ، حاول فيها أن يقلد القرآن ، فألقاها باللغة العربية ، وسجع فيها ، وسرق ، ولكنه انتهى الى « الهام » يضحك التثكلى ، وقرآن إذا تلاه إنسان لم يتبع قرآنه . . اللهم إلا طائفة من أهل الهند تابعت متأثرة بنشاطه ونشاط أتباعه في الدعاية . والهند ميدان عجيب للعقائد والنحل ، فلا يستغرب أن يكثر من أفرادها من يدين بالتديانية ، ويحملها على نصوص من القرآن أسىء فهمها وتأويلها . ولا نريد أن نناقش متنبى قديان ، ولكن نعرض طائفة من (قرآنه) الذي قال عنه في فاتحته :

« هذا هو الكتاب الذي ألهمت حصة منه من رب العباد ، في يوم

عيد من الأعياد !! »

يقول « أرايتم ان كنتم من عند الله ، ثم كذبتوموني فما بالكم أيها المكذبون . . انكم ترون كيف تنصر الناس واربدوا من دين الله . ثم تقولون ما جاء مرسل من عند الله ، ما لكم كيف تحكمون . . فأنعم الله على هذه الأمة بإرسال مثيل عيسى ، وهل ينكر بعده إلا العمون وكان عيسى علماً لبني إسرائيل ، وأنا علم لكم أيها المفرطون »

وقد مات غلام أحمد سنة ١٩٠٨ وترك من ورائه خليفة ، ثم خليفة

وكانت آية هذا المتنبي الحديث خطبته الإلهامية ، وكانت هذه الخطبة في ذاتها دليل كذبه ، فحسب أى إنسان يعرف العربية أن يقرأ لغواً مثل قول غلام أحمد بعد أن يورد الآية « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » هذه بشارة بأنه سيكون في هذه الآية الإسلامية رجل في درجة مريم الصديقة ، ثم ينفخ فيه روح عيسى ، أى ان الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية ، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم .

حسب الإنسان أن يقرأ كلاماً كهذا ، لكي لا يدرك فقط أنه فقد ميزة البلاغة ، ولكن يسرع فيدرا عن نفسه التفاهة الكريهة التي تهب عليه منه ولكننا مع هذا نرى كيف صنع القرآن بخيال هذا الرجل . وكيف حسب أنه إذا جمع ألفاظاً مما استعمل القرآن وضم بعضها إلى بعض يستطيع أن يصنع قرآناً . فقوله مثلاً « وقد أوحى إلى من ربي قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » يدل على مقدار تأثير النغمات والألفاظ القرآنية على ذهنه . فالفاظ « قد أوحى » و « اصنع الفلك بأعيننا » منتبهة من آيات القرآن . ولكنه ضم بعضها إلى بعض في تركيب غير محكم ، وأضاف إليها كلمة الطاعون . ثم جلس يستنشق نفساً طويلاً ، ويقول هذا هو قرآنى !!

لفظ ومعنى

« الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »

— ١ —

موضوع القراءة

قال ابن خلدون في مقدمته : إن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني . وإنما المعاني تبع لها وهي أصل . . . فالمعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . . واللفظ بمثابة القوالب للمعاني . فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء . كذلك جودة الألفاظ وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه .

ولو أننا جارينا ابن خلدون في مذهبه هذا ، وجعلنا المكان الأول
للبلاغة في الألفاظ لا في المعاني ، إذا قلنا ان القرآن معجز لأنه صاغ معانيه
صياغة يعجز عن الإتيان بمثها الناس .

ولا نحسب الأمر كذلك ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه إن لم نقل انه
معجز بمعناه أكثر مما هو معجز بلفظه . . ولقد ضرب ابن خلدون مثلاً وقاس
عليه الألفاظ والمعاني . فقال اذا أردت أن تشرب ، فاشرب في آنية الذهب
لا آنية الخرف ، فالماء واحد ولكنه يمتاز في تلك بيها منظره وطابع الترف
الذي يشع منه . . ولو أن ابن خلدون كان من سكان القاهرة في هذا
العصر ، وكان يسكن حى عابدين ، ويشرب من ماء النيل ويعتاد عليه
مذاقه ، ثم زار كاتب هذه السطور في حدائق القبة وقدم له هذا الماء الذي
يخرجونه من الأرض ملح المذاق . . إذن لتأذى ، ولما صبر عليه ، ولعدل
عن رأيه أن الماء واحد في نفسه . . فكما يختلف مذاق الماء في مدينة واحدة
هى القاهرة ، كذلك يختلف المعنى في شخص عن شخص . وقد وفق
ابن خلدون في مقدمته إلى معان اجتماعية ونظرات فلسفية ، كانت في رأسه
وحده ، واستطاع هو دون غيره الإهتمام بها . . ولو أنها كانت في رؤوس
الناس جميعاً ، إذن لما امتاز هو عن غيره من المؤلفين ، بل ربما كان له أنداد
في ثروة الألفاظ وفي المقدرة على التعبير يساوونه ، إن لم يزيدوا عليه .

معاني القرآن إذن مصوغة في الألفاظ التي عبر بها القرآن ، هي التي عجز الناس عن ابتكار مثلها . ولئن صح لبعض المتكلمين أن يختلفوا في مراتب الفصاحة القرآنية وهل القرآن كله في مرتبة واحدة من الفصاحة ، فهم لا يختلفون في أن الأهداف التي رمى اليها القرآن ، والمعاني التي عبر عنها هي دستور الحياة الإنسانية الذي لا يأتيه نقص ، ولا يتطرق اليه قدم . دستور صالح للعمل به في كل مجتمع وفي كل زمن .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : انه لا تفاوت في فصاحة أجزاء القرآن ، وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا ، وأن كل ما في القرآن على أرفع درجات الفصاحة . ولكن القشيري (أبا نصر) يرى غير رأى أبي بكر ويقول : لا ندعى أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة . وعلل بعض القدماء السبب في تفاوت الفصاحة القرآنية بأنه لو جاء القرآن فصيحاً في كل جزء من أجزائه لكان على غير النمط المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته ، ولا تقول قريش مثلاً : أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه ، كما لا يصح للبصير أن يقول للأعمى قد غلبتك بنظري لأن الأعمى يرد عليه بقوله إنما تم لك الغلبة لو كنت قادراً على النظر وكان نظرك أقوى من نظري ، وأما إذا فقدت العينين وهما أصل النظر فكيف تصح مني المعارضة !

وربما كان هذا الدفاع الذي ذكره القدماء عن تفاوت الفصاحة القرآنية محتاجا بدوره الى دفاع لما يشوبه من تكلف واضح . وذلك أن من عالج فن الإنشاء يرى أسلوب الأداء يتفاوت بحسب الموضوع الذي يعبر عنه . فانا حين أقرر حكما من الأحكام أضطر الى نوع من الإيجاز ، واختيار طائفة معينة من الألفاظ لا اعدل عنها . وحين أهاجم عدوا ، أو أصف منظرا أخرج عن نطاق الألفاظ المحدودة والمعاني المحصورة الى أفق أوسع يعمل فيه الخيال وتلتهب فيه العاطفة . وكذلك الشأن في القرآن ، فأية المواثيق مثلا تضمنت طائفة من الأرقام والتقسيمات لا مجال للعاطفة فيها لأنها حكم من الأحكام .. أما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ لِّمَنْ تَسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

فهذه الآية بما تضرب من مثل عجيب ، وما تتضمن من معنى خالد تشير في النفس طائفة من الاحساسات والانفعالات ، كما تحرك في الذهن طائفة من الآراء والأفكار والتأملات لا سبيل الى حدها .

الخلافاً الذي نراه إذن في أسلوب هذه الآية ، وفي أسلوب آية أخرى من آيات التشريع إنما يرجع إلى الموضوع في ذاته ، لا إلى طريقة الأداء . ومن هنا يفهم قول القاضي أبي بكر « بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض » ذلك أن الصورة التي ترتسم في الذهن وفي النفس عن معنى الآية هي التي توضحها وتقربها . وهنا ينبغي أن نكرر المعنى الذي سبق أن ذكرناه وهو أن كل كلمة في آية من آيات القرآن ، إنما وضعت في مكانها أحسن وضع وأنه لو حدث أن بدلت هذه الكلمة بغيرها إذن لما اتسق نظم الآية ، ولأحسن القارئ بأن أمراً حدث في الآية .

ذكر السيوطي في تعريف القرآن (ان القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته ودعائه الى طاعته وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإرشاد الى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء منها موضعه النهي لا يرى شيء أولى منه . ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثالات الله بمن مضى ، وعائد منهم منبثاً عن الكوائن المستقلة والأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك آكد للزوم ، وما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه)

والسيوطى هنا يرى الإعجاز يشمل المعنى فى اللفظ الذى أدى به ، وهو قول صواب .



وفد عرف الأستاذ فريد وجدى مقاصد القرآن بقوله « القرآن وحى إلهى نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً . وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لأشتات الحسب ومفرقات الأصول . وأنه فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وأنه جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية . وأنه آخى بين طبيعتى الإنسان الجسدية والروحية ، وأنه أنزل للعالمين أجمعين وروعيت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم ولا جرم أن كتاباً هذا شأنه لا بد من أن يكون رامياً لى مقاصد ومتوخياً فى تعاليمه دستوراً . ولا بد أن يكون قد وعد وأوعد وبشر وأنذر ، ورغب ونفر ، وبى وهدم ، وقوى ووهن ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته إلى المكانة التى بلغها فى نفوس الآخذين به قديماً وحديثاً (١) .. »



وذكر الشيخ الخضرى فى تاريخ التشريع الإسلامى « الكتاب هو القرآن وهو أجل من أن يعرف »
ثم ذكر فى نفس المصدر : اشتمل القرآن على أنواع من الأعمال كلف بها العباد .

الأول معاملة بين الله والعبد وهى العبادات التى لا تصح إلا بالنية ، ومنها عبادات محضة وهى الصلاة والصوم . وعبادة مالية اجتماعية وهى الزكاة

(١) مقدمة المصحف المفسر ص ٩٨

وعبادة بدنية اجتماعية وهي الحج . وقد اعتبرت هذه العبادات الأربع بعد الإيمان أساس الاسلام

الثاني معاملة بين العباد بعضهم مع بعض وهي أقسام :

(١) مشروعات لتأمين الدعوة وهي الجهاد

(ب) مشروعات لتكوين البيوت وهي ما يتعلق بالزواج والطلاق

والأنساب والموارث

(ح) مشروعات لطريق المعاملة بين الناس من بيع وإجارة وغير ذلك

وهي المعروفة بالمعاملات .

(د) مشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي القصاص والحدود



وعرف المرحوم الشيخ طه حبيب القرآن بقوله :

« القرآن هو اللفظ العربي المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، المتعبد

بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه ، المتواتر . فالمنزل هو اللفظ المقروء .. »

وقال عن الحديث القدسي : « أما الحديث القدسي فهو ما أسنده النبي صلى

الله عليه وسلم الى الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام . ولا يلزم أن

يكون متواتراً ، ولا هو متعبد بتلاوته ولا متحدى به » وفرق بين كلام الله

وبين القرآن بقوله : « أما كلام الله الذي هو صفة له عز وجل منافية للسكوت

والآفة ، فليس من جنس الحروف والأصوات ، ولا يختلف إلى الأمر والنهى
والاخبار ولا يتصف بالماضى والحال والاستقبال إلا بحسب التعلقات والاضافات ..
وجملة القول ان المنزل والمقروء ليس هو الصفة القديمة كما هو ظاهر (١) »



وقسم هرشفلد (Hirschfeld) القرآن حسب موضوعه إلى أربعة أقسام :

(١) — تبليغ .

(٢) — قصص .

(٣) — وصف .

(٤) — تشريع .

وربما كان هذا التقسيم أدنى تقسيم معروف إلى الإيجاز والصواب .

وقد بذل العلامة جول لايوم (٢) جهدا كبيرا محمودا في ترتيب آيات القرآن حسب
الموضوعات التي عرضت لها ..



(١) فتاوى مجلة الأزهر المجلد الرابع ص ١٩٨

(٢) نقل هذا الترتيب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي وطبعته مطبعة
الحلبي طبعا متقنا .

حوار وفروصه

تلك هي المعاني التي طرفها القرآن ، وعلى أساسها ، وعلى أساس أسلوبه في أدائها يقوم اعجازه مضافا إليها ما أنبأ به من أخبار الغيب . وسنتكلم في فصل خاص من هذا الكتاب عن نظر المسلمين المتأخرين إلى أجزاء هذه المعاني وكيف فسروا بعضها ، واختلفوا في هذا التفسير ، وكان اختلافهم هذا منشأ الفرق الإسلامية ، وأهم سبب من أسباب نشأة علوم الكلام التي استندت عليها الفلسفة الإسلامية كلها .

إلا انا نريد أن نصل البحث الماضي بذييل له هو هذا المثال الغريب الذي ساقه ابن الراوندى ليوضح به مذهبه في الإعجاز ، وحوار اثنين من الباحثين حوله . ثم هذا الرأي الذي قال به النظام — أحد أئمة المعتزلة — ورد السيوطى عليه .

قال أبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى في كتاب له اسمه الفريد أو الفرند : ان المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به

النبي ، فلم تقدر العرب على معارضته . فيقال لهم : اخبرونا لو ادعى لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أو إقليدس ان اقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه . أكانت نبوته تثبت ؟ .

وقد أورد الرافعي هذا القول في كتابه اعجاز القرآن وبعد أن سفه صاحب الرأي وأقذع في شتمه قال : (فاعجب لهذا الجهل الذي يكون قياسا من أقيسة العلم واعجب للكلام الذي يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب فكلهما كتاب . ولما كانا كذلك فأحدهما مثل الآخر ولما كان أحدهما معجزا فالثاني معجز لا محالة . وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثاني . وما دمتا نعرف أن صاحب الثاني لم تثبت له نبوة فنبوة صاحب الأول لا تثبت . لعمري أن مثل هذه الأقيسة التي يحسبها ابن الراوندى سبيلا من الحجّة وبابا من البرهان لهي في حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط . وإلا فأين كتاب من كتاب وأين وضع من وضع وأين قوم من قوم وأين رجل من رجل . ولو أن الإعجاز كان في ورق القرآن وفيما يخط عليه لسكان كل كتاب في الأرض ككل كتاب في الأرض . ولا طرد ذلك القياس كله على ما وصفه كما يطرد القياس عينه في قولنا ان كل حمار يتنفس وابن الراوندى يتنفس فابن الراوندى يكون ماذا ؟ » .

ويظهر أن المرحوم الرافعي كان مهتاج الأعصاب وهو يرد على ابن الراوندى ، ذلك ان هذا العالم القديم (توفى في نهاية القرن الثالث الهجرى) يقول في عبارة هادئة إنه لا يكتفى أن يعجز العرب عن محاكاة القرآن لكي يكون القرآن معجزا ! .. ويكون صاحبه نبيا . وإلا فلو أن عالم رياضة أو صاحب فلسفة أتى بنظرية يعجز غيره عن الإتيان بمثلها هل يكفي هذا لأن يدعى صاحب النظرية النبوة .. وذكر رجلين من أعلام الفكر القديم هما بطليموس واقليدس ولكلا الرجلين ما يعد إلى اليوم قمة الباب الذى ألف فيه .. ومع هذا فلا سبيل لأن يصدقهما أحد إذا ادعى أو ادعى واحد منهما النبوة !

وكان ينبغى للرافعى أن ينقض هذا الكلام بكلام من نوعه وفي اتجاهه ثم يصب عليه ما شاء من الشتائم . ولكنه ذكر الرد الذى أثبتناه وختم رده بمقتبسات من رد المعرى عليه ، وأسمى رد المعرى بصقا على كتب ابن الراوندى بمقدار دلو من السجع .. ولا ننسى أن المعرى الذى احتج الرافعى برده على ابن الراوندى لم يسلم من قلم الرافعى ، فقد أهال عليه بعد صفحة واحدة أكواما من التراب^(١) .

(١) راجع صفحات ١٨٥ إلى ١٨٩ من كتاب اعجاز القرآن للرافعى .

وقد تصدى الأستاذ عباس العقاد لهذه النقطة من كتاب الرافعي في كتابه ساعات بين الكتب فقال قولاً سديداً نجمله فيما يأتي :

ما هي المعجزة ؟ هي حادث خارق لنواميس الكون التي يعرفها الإنسان مقصود به اقناع المفكرين بأن صاحبها مرسل من قبل الله إذا كان يأتي للناس بعمل لا يقدر عليه غير الله . وإنما الأساس فيها والحكمة الأولى أنها تخرق النواميس المعروفة وتشد عن السنن المطردة في حوادث الكون ، وعلى هذا الوجه يجب أن يفهمها المؤمنون بها والمنكرون لها على السواء فيخطئ المؤمن الذي يحاول أن يفسر المعجزة تفسيراً يطابق المعهود من سنن الطبيعة لأنه بهذا التفسير يبطل حكمتها ويلحقها بالحوادث الشائعة .

المعجزة في لفظها العربي قوامها الإعجاز أي الاتساع بأن فاعلها هو الله لا سواه ، ومن ثم يكون الرجل الذي ساقها مساق الدليل رسولا من عند الله . ولا يكفي الإعجاز وحده دليلاً على الرسالة الإلهية لأن الإعجاز قد يكون بغير براعة في الفعل المعجز ، وقد يكون لعمل من أعمال البشر التي لا بد فيها من رجحان واحد على الآخرين . مثال ذلك — جاء إليك صبي يتهجى وكتب لك سطراً من خطه ، ثم طلب إليك أن تكتبه أنت بيدك كما كتبه هو غير مستعين برسم ولا تصوير ، فأنت لا محالة عاجز عن محاكاة ذلك الخط أتم محاكاة ، وغيرك أيضاً عاجزون عن إجابة ذلك التحدي الساذج

الصغير ، فماذا ترى في دعوى الصبي إذا هو ادعى النبوة أو ما شاء له عقله الصبياني الخدوع ؟ هذه محاكاة يعجز عنها أقدر القادرين في كتابة الخطوط لا لحسن رائع في الخط المحاكي ، ولا لزيادة في جهة الصنعة وطاقة التجويد ، ولكن لأن يد الصبي غير سائر الأيدي ومعرفته بالخط غير سائر المعارف ، فهو يكتب خطأ لا يحكيه أحد ويفعل فعلا يعجز عنه الآخرون . فهل ترى هذا الإعجاز مما تنهض به الحجة وتعنوله العقول؟! أو هل ترى أن مجرد العجز هنا دليل على انتصار الصبي القادر وخذلان المقلدين العاجزين؟

ثم عرض لما ذكر ابن الراوندى في الإعجاز ورد عليه بقوله :

كلام ابن الراوندى هذا ظاهر المغالطة ، لأن اقليدس لم يخترع الحقائق التي أوردها في كتابه وليس في طاقته هو نفسه أن يبتدع كتابا آخر ، أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا . فالعجز هنا يشمل اقليدس كما يشمل الآخرين والدعوى لا تظهر له فضلا ، غير فضل الاهتداء والإشارة إلى الحقائق الموجودة قبله ، والتي لا يدلها هو في إيجادها بأى معنى من معاني الإيجاد^(١) .



ذلك قول ابن الراوندى في الإعجاز والرد عليه . وأما « النظام » فله مذهب آخر ، شائع معروف وهو مذهب الصرفة .

(١) س ٧ وما بعدها من كتاب ساعات بين السكتب للعقاد .

في كتاب الاتقان : زعم «النظام» «أن إعجاز القرآن بالصرفة ، أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدور لهم ، ولكن عاقبهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات» .

ورد السيوطي بقوله : وهذا قول فاسد بدليل : «قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ .. الآية . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم تبقى فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتي . وليس عجز الموتي مما يحتفل بذكره . هذا مع أن الاجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا ، وليس فيه صفة إعجاز ، بل للمعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله !! وأيضا يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وخلق القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لاجماع الأمة . إن معجزة الرسول باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن» .

وقال القاضي أبو بكر : «ومما يبطل القول بالصرفة ، انه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون بالمنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة غيره في نفسه» .

ولا يكتفى النظام بهذا القول في الإعجاز ، وهو أن سببه صرف الله الناس عن محاكاته ، ولكن له آراء في أسباب الإعجاز .. كقوله بأن إعجاز القرآن إنما سببه ما فيه من اخبار عن الغيوب ، كالإخبار عن عالم

الغيب ، وكالإخبار عن أحداث مستقبله كقوله تعالى : « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وقوله : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقا تلونهم أو يؤسفون ، فإن طيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تنولوا كما توليتم من قبل يُعذبكم عذاباً أليماً » . واخباره بما في نفوس قوم ، وبما سيقولونه . الخ .. أما التأليف والنظم والأسلوب فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله صرفهم عن الإتيان بمثله ^(١) .



ولم يكن النظام — ابراهيم بن سيار بن هانيء — ضعيف العقل ، ولا ممن يغمز جانب إيمانهم بسهولة ، فهو حجة المعتزلة وأشهر أئمتهم وقد مات شاباً في سنة ٢٢١ إذ لم يزد على السادسة والثلاثين ، ومع هذا كان إماماً من أئمة الفكر الإسلامي . وقد أثارت آراؤه هذه وغيرها من الآراء المتصلة بفروع الدين لغطاً شديداً متصلًا في محيط المتدينين والفلاسفة . وقد تزعم النظام مدرسة من مدارس المتكلمين الإسلاميين وحسبه أن تلميذه الجاحظ . . كما أنه إلى جانب آرائه في الدين كان عالماً مجرباً ، يفرغ بالحصول على النتائج من وراء المشاهدة العملية .



(١) ضحى الاسلام الجزء الثالث ص ١٢٥

وكما روينا رأى ابن الراوندى ورأى النظام فى إعجاز القرآن والرد عليهما
لا ترى بأسا من أن نورد طرفا مما قال فى هذا الباب أحد قدماء الباحثين
المخاضين وهو القاضى أبو بكر الباقلانى ، فقد ذكر من بحوثه عن إعجاز القرآن
أن وجه إعجاز القرآن ما فيه من النظم والتأليف والترصيف وأنه خارج
عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم ..
قال : « ولهذا لم يمكنهم معارضته . ولا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من
درس أصناف البديع التى أودعوها فى الشعر ، لأنه ليس مما يخرق العادة ،
بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به كقول الشعر ووصف
الخطب وصناعة الرسالة والحذق فى البلاغة .. فأما نظم القرآن فليس له مثال
يحتذى ولا إمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا » . قال : « ونحن نعتقد
أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعضه أدق وأغمض » .

ونرى من عبارة القاضى أبى بكر أنه فهم المعجزة على النحو الذى فهمه
الأستاذ العقاد فى العبارة التى سقناها عنه فهو يرى أن محاولة التدايل على
إعجاز القرآن بأن فيه هذه الاستعارة البارعة أو هذا الخيال الرائع عبث
لا طائل تحته ، لأن هذه المقاييس إنما يقاس بها كلام الناس لا كلام الإله .
وكلام الناس مع تفاوته فى الدرجات يحصل جيده بالعلم والتدريب . وليس
شأن القرآن كشأن كلام الناس .

مصحف عثمان

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »

— ١ —

التدوين بين النبي والصحابة

انتهينا في الفصل الذي عقدهنا في كتابنا الماضي عن « النبي والقرآن » إلى أن النصوص التي بين أيدينا لا تقطع بأن القرآن كان يدون في العهد المبكر فقد استمر الوحي ينزل على رسول الله عشر سنين في هذه الفترة (باستثناء مدة انقطاعه في أول البعثة) . ولم تكن ظروف النبي في مكة لتسمح له بحالة من الاستقرار تساعد على التدوين المنتظم . وكل ما رجحناه هو أن صحفاً معينة كانت تكتب من القرآن ، ويتداولها المسلمون سراً ، ليتدارسوها في بيوتهم بعيداً عن أعين قريش ، وعن أذاها المتصل . .

ونعود الآن إلى النصوص نفسها التي بين أيدينا لتري ماذا كان عليه الحال في العهد المدني ، وكيف كان يدون القرآن ؟ . . .



ورد في الاتقان عن زيد بن ثابت : قال . . . «قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء» .
وعن زيد بن ثابت أيضاً قال : «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع» .

قال الخطابي : «إنما يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاة أئمة الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر» . .



وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن»
وعلق السيوطي على هذا الحديث بقوله : «لا ينافي ذلك ، لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة . . وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور» .



وقال الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابتها ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب . وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً . وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله فيها القرآن منتشراً فجمعها جامع وربطها بخيط لا يضيع منها شيء » . .

قال صاحب هذه الرواية : « فإن قيل كيف الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ، قيل لأنهم كانوا يندون عن تأليف معجز ، ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبي عشرين سنة فكان تزوير ما ليس منه مأموناً . وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صفته » .



قال السيوطي : « وقد تقدم في حديث زيد أنه جمع القرآن من العصب واللخاف . وفي رواية والرقاع . وفي أخرى وقطع الأديم . وفي أخرى والأكتاف . وفي أخرى والأضلاع . وفي أخرى والأقتاب والعصب » (جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض . واللخاف جمع نخفة وهي الحجارة الدقاق)

وقال الخطابي : « صفايح الحجارة ، والرقاع : جمع رقعة وقد تكون من

جلد أو ورق أو كاغد . والا كتاف جمع كتف وهو العظم الذى للبعير
ليركب عليه .



وفى كتاب تاريخ القرآن للشيخ الزنجاني^(١) .

« كان الكتبة يكتبون الآيات فى العصب واللخاف والرقاع ، وأحيانا
فى الحرير وقطع الأديم والا كتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك
الأشياء . وكان تطلق عليها الصحف . وكانت من تلك الصحف تكتب
لرسول الله (ص) وتوضع فى بيته » . قال محمد بن اسحق فى الفهرست : « وكان
القرآن مكتوبا بين يدي رسول الله فى اللخاف والعصب واكتاف الإبل » .
وروى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : « تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف
والعصب وصدور الرجال » .

روى العياشى فى تفسيره فى ذيل روايته له : « قال على عليه السلام :
إن رسول الله أوصانى إذا وارىته فى حفرة أن لأخرج من بيتى حتى أولف
كتاب الله . فإنه فى جرائد النخل وفى اكتاف الإبل » .

وفى رواية على بن ابراهيم عن أبى بكر الحضرمى عن أبى عبد الله جعفر
ابن محمد قال : « إن رسول الله قال لعلى : يا على إن القرآن خلف فراشى فى

الصحف والحريير والقرطيس . يخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة» ، وانطلق على عليه السلام بجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه^(١) . هذه هي جملة الروايات التي تتحدث عن صلاة رسول الله بتدوين القرآن وكلها كما نرى لم تتعرض للتدوين في الفترة المسكية ، والراجح أنها كلها تشير إلى الفترة المدنية من حياة النبي للأسباب التي ذكرناها ..

ثم إننا نرى خلافا واضحا بين هذه الروايات . فمنها من ينكر أن القرآن جمع في عهد النبي . ومنها من يقول إن القرآن كان في صحائف وراء فراش النبي . ومنها ما يعنى في التفاصيل فيقول ان هذه الصحائف جمعت في خيط أو ان علي بن أبي طالب حزمها في ثوب أصفر !!

والذي نراه ان النبي عليه السلام كان يبيح للمسلمين كتابة القرآن بان يستطيع منهم الكتابة . وأنه كان يأمر كتابه بتدوينه . ولكن التدوين لم يكن وفق نظام مقرر بحيث يطمأن إلى أن النبي خلف القرآن كله مدونا مرتب السور مجوعا وسنرى فيما بعد أن القرآن الذي نزل رفع بعضه بالنسخ ، وقد أشارت روايات مما ذكرنا إلى هذه النقطة فقالت إن القرآن لم يجمع لما كان النبي يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته .

(١) الأستاذ عبد الله الزنجاني من كبار مجتهدي الشيعة المحدثين ونراه هنا يورد روايات من مصادر شيعية .

وينبغي هنا أن نفرق بين التدوين المجرد ، وبين الجمع فأما التدوين فهو التسجيل دون اتباع نظام ثابت . وأما الجمع فهو تأليف مصحف وترتيبه .



ولنقل كلمة عن الصحابة الذين عنوا بتدوين المصحف فقد وردت روايات كثيرة منها رواية الفهرست التي تقول ان الذين جمعوا القرآن في عهد النبي وأكملوه بعده هم : علي بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبيد بن معاوية ، ومن أسماء الفهرست أبو زيد ثابت بن زيد (وهذان الأخيران غير معروفين على وجه التحقيق ، ووردت عنهما احتمالات في أسد الغابة .)

وفي البخارى أن جماع المصحف على عهد النبي أربعة : أبي بن كعب ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد .

وزيد الإتيان على هؤلاء ويبدل غيره في الأسماء ، ولا تكاد الروايات تتفق على واحد منهم .

وسرى عند ما نتكلم عن الجهود التي بذلها زيد بن ثابت لجمع المصحف أن هذه الروايات عن وجود مصاحف في عهد النبي لا تستقيم مع منطق التاريخ . فلو أنها كانت كذلك إذن لتناسخها المسلمون ، ولما اضطرب عمر بن الخطاب

هذا الاضطراب الشديد عند ماسمع بمصرع حفاظ القرآن في حروب الردة . .
حسب الروايات الذائعة عن جمع القرآن والتي سنناقشها بعد .
وما نقول هنا عن تدوين الصحابة للقرآن ، هو ماقلناه عن صلة رسول الله
بالتدوين ، وهو أنه كان مجرد تسجيل لسور وآيات ، قد يمكن استخلاص
مصحف منها أو أكثر من مصحف إذا راعينا النسخ والنسوخ . ولم يكن
من بينها على الجملة مصحف كامل .



النسخ والنسخ

نسخ في القاموس كمنع بمعنى أزال وغير وأبطل وأقام شيئاً مقام شيء .
وهذا غير نسخ الكتاب أى نقله ...

والنسخ في اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين ^(١) :

الأول — إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق ، ومثاله
ما ورد في حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور . ألا فزوروها » . فالنص
الأول يطلب الكف عن الزيارة والنص الثاني يرفع ذلك النهى ويحل محله
الإباحة والطلب .

الثاني — رفع عموم نص سابق ، أو تقييد مطلقه . ومثاله قوله تعالى في
سورة البقرة : « وَالْمُطَلَّعَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ثم قال في
سورة الأحزاب : « إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ
أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا » فإن النص الأول عام ،

(١) تاريخ التشريع ص ٢٣

ينتظم المدخول بها وغيرها . والنص الثاني يعطى غير المدخول بها حكماً خاصاً بها .

وكذلك قوله تعالى في سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » ثم قال عقب ذلك : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجاً كانوا أم غير أزواج ؛ والنص الثاني جعل للأزواج حكماً خاصاً بهم حيث جعل إيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة ، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بإيمانها الخمس .

ومثال تقييد المطلق : قوله تعالى في سورة الأحزاب (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ » وقال في آية أخرى في سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » فالنص الأول مطلق للدم المحرم ، والثاني مقيد له بالدم المسفوح . اهـ .



والواقع أن الناسخ والنسوخ من أهم غوامض القرآن ومشكلاته . . . فحسبنا أن نتصور أن آيات من القرآن نزل بها الوحي ، في ظرف من الظروف ثم جاءت مناسبة قضت بأن ترفع هذه الآيات ، أى أن تبطل تلاوتها ولا

تصبح قرآناً . وأن تبقى ولا يعمل بما فيها ، إن كان ما فيها حكماً من الأحكام .

ولقد خاض المؤلفون كثيراً في هذه الآيات والسور التي كانت من القرآن ثم لم تصبح قرآناً ، حتى قال السيوطي بحق عن الناسخ والمنسوخ : « افردته بالتصنيف خلائق لا يحصون » .

وسبب اهتمام القدماء بهذا الفرع من علوم القرآن أنه يساعد المشرعين مساعدة مباشرة على تفهم الأحكام التي يعمل بها من القرآن ، والأحكام التي لا يعمل بها . وسبب اهتمام غيرهم من العلماء هو البحث في تطور الدعوة الإسلامية أيام النبي عليه السلام ، والبحث في الأدوار التي مر بها التنزيل حتى انتهى إلى المصحف الذي بين أيدينا الآن .

ففي الإتيان : قال الأئمة . لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ . وقد قال علي بن أبي طالب لقاض من القضاة : أتعرف الناسخ والمنسوخ . قال لا . قال هلكت ، وأهلكت .

وقد ورد ذكر النسخ في القرآن أكثر من مرة .

قال تعالى : ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها .

وقال أيضاً : ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

والنسخ في الآية الأولى هو إزالة آية من الآيات أو تبديلها . وفي الآية الثانية بمعنى النقل .

وورد معنى النسخ دون لفظه في الآية : وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّل ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .
وذكر في سبب النسخ؛ أي إبطال الأحكام أو تخفيفها رغبة الله تعالى في التخفيف عن الناس .

ووضعت قواعد للنسخ ، هي من غير شك مجرد اجتهاد من الباحثين في علوم القرآن ، إذ أنه لم يرد في القرآن أو الحديث الثابت ذكر قواعد صريحة لهذه المسألة الهامة .

وما قاله العلماء في النسخ :

أولاً — لا ينسخ القرآن إلا بقرآن استناداً على آية النسخ .

ثانياً — وقيل : بل ينسخ القرآن بالسنة لأنها أيضاً من عند الله . قال تعالى : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى .

ثالثاً — وقيل : إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحي نسخت . وإذا كانت باجتهاد من النبي لا وحي فيه ، فلا تنسخ القرآن .

رابعاً — وذكر الإمام الشافعي أنه حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها

قرآن مؤيد لها . وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمع القرآن سنة مؤيدة له ،
ليتبين توافق هذين المصدرين الرئيسيين من مصادر التشريع الإسلامى .



ومعروف بدهاءة أن النسخ لا يقع إلا فى أمر يجب اتباعه ، أو طلب ،
أو خبر يجرى مجرى الطلب . فأما الوعد والوعيد والتقص وغيره فلا نسخ فيه
وأحصيت سور المصحف التى عرف أن فيها ناسخا ومنسوخا فكانت
خمسا وعشرين سورة هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والحج ،
والفرقان ، والشعراء ، والأحزاب ، وسبأ ، والمؤمنون ، والشورى ، والذاريات ،
والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمل ، والمدثر ، والتكوير والعصر .
وذكرت ست سور منها آيات ناسخة وليس فيها منسوخ ، وهى الفتح
والحشر والمناقون والتغابن والطلاق والأعلى .

وقيل إن من السور الباقية أربعين فيها أحكام منسوخة ، وباقي المصحف
بعد هذا لم يختلف فى أنه خلا من الناسخ والمنسوخ جميعا ، وعدد هذه السور
ثلاث وأربعون وهى :

الفاحة ، ويوسف ، ويس ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والصف ،
والجمعة ، والتحریم ، والملك ، والهاقة ، ونوح ، والجن ، والمرسلات ، وعم ،
والنازعات ، والانفطار ، والمطففين ، والانشقاق ، والفجر إلى آخر المصحف ،
فراجعها فى مصحفك .

ويمكن القول بأن السور التي لم يحدث تعديل في آياتها هي السور المكية .
وأما السور التي كثرت فيها أحكام التشريع فهي التي حدث فيها النسخ .



وقد اتسع مجال الخلاف بين القدماء في الآيات التي لا تزال في المصحف
وأبطل العمل بأحكامها أو عدلت هذه الأحكام .

وذكر في سبب بقاء هذه الآيات الكثيرة التي اتفق على نسخ أحكامها
والتي اختلف عليها : « إن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به
فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة . ولما كان
النسخ غالبا للتخفيف ، فقد أقيمت التلاوة تذكيرا للنعمة ورفع للشقة » .
وهذا الكلام لا يصلح سببا قويا لما ذكر من أجله .

ويشبهه في عدم الإقناع ما ذكر في سبب إلغاء آيات من المصحف مع
بقاء حكمها . . فقد قيل فيه : « ليظهر مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى
بذل النفوس بطريق الظن من غير استئصال لطاب طريق مقطوع به ،
فيسرعون بأيسر شيء ، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بتمام . والمنام أدنى
طريق الوحي » .

فهذا دليل ظاهر الضعف من الوجهة العلمية كما ترى . ولا سبيل إلى
ذكر سبب يطمئن إليه العقل حتى الآن .



ولنضرب أمثلة لهذه الآيات التي نزلت وبطلت تلاوتها وبقي حكمها ..
وقبل هذه الأمثلة نذكر ما قال ابن عمر : ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن
كله . وما يدريه ما كله . قد ذهب منه قرآن كثير . ولكن ليقبل قد
أخذت منه ما ظهر .

وهناك رواية عن عائشة تقول فيها : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن
النبي صلى الله عليه وسلم مئتي آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم تقدر منها
إلا ما هو الآن .

ولأبي بن كعب رواية ثانية في آيات سورة الأحزاب مؤداها أنه كان
يتحدث مرة مع ذر بن حبيش فقال له : كأي تعد سورة الأحزاب . فقال
له ذر : اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية . فقال أبي إن كانت لتعدل
سورة البقرة ، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم . فسأله ذر : وما آية الرجم قال :
إذا زنا الشيخ والشيخة ، فارجوهما البتة نكالا من الله . والله عزيز حكيم .
وهناك رواية تورد آية الرجم هذه التي لم ترد في القرآن على نحو آخر
هو : الشيخ والشيخة ، فارجوهما البتة بما قضيا من اللذة .

وروى عطاء بن يسار عن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناها فعملنا مما أوحى إليه .. قال : فحُتت ذات يوم
فقال إن الله يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . ولو أن لابن

آدم واديا لأحب أن يكون إليه الثاني . ولو كان إليه الثاني لأحب أن يكون
إليهما الثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .
ورويت آية المال هذه على لسان أبي بن كعب بصورة أخرى هي أنه
قال : قال لي رسول الله إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن . فقرأ ، لم يكن
الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ... ومن بقيتها : لو أن ابن آدم
سأل واديا من مال فأعطيته ، سأل ثانيا ، وإن سأل ثانيا فأعطيته . سأل ثالثا .
ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب . وإن ذات
الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية . ومن يعمل خيرا فلن
يكفر ...

وروى عن أبي موسى الأشعري قال : نزلت سورة نحو براءة (في عدد
الآيات) ثم رفعت وحفظ منها : إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق
لهم ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لمتنى واديا ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن
آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب .

وروى أبو موسى الأشعري أيضا قال : كنا نقرأ سورة تشبهها بإحدى
المسبحات ، نسيناها ، غير أني حفظت منها . يأتيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا
تفعلون ، فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها في يوم القيامة .
وروى عن عمر بن الخطاب قال : كنا نقرأ : لا ترغبوا عن آبائكم فإنه
كفر بكم .. ثم قال لزيد بن ثابت أ كذلك ؟ قال : نعم .

وروى أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل علينا: أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ، فانا لا نجدها ؟ . قال كعب : أسقطت فيما أسقط من القرآن .

ويظهر أن هذه الآيات التي سقطت من القرآن كانت موضوع حديث بين الصحابة . فقد كان جمع منهم يسلمون ذات يوم ، فقال لهم مسلمة بن مخلد الأنصاري :

— أخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبتا في المصحف . فلم يخبروه . فقال مسلمة :

— إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إلا ألبشروا أتم المفلحون . والذين آوهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون^(١) .



ما شأن هذه الآيات التي يقال انها كانت قرآناً ثم لم تصبح قرآناً . والتي إذا دققنا النظر في بعضها لا نجد حكا من الأحكام يبدل بغيره لسبب من الأسباب ؟ ! .

(١) يراجع في هذا كتاب الاتقان وكتاب المصاحف لابن أبي داود .

الأقوال في هذا الشأن كثيرة . فمنها :

أولاً — أن ما قيل عن وجود سور طويلة ، مثلما روى الأشعري وأبي بن كعب ثم نقصت أو ذهبت كلها ، فإنما كان ذلك لأن الله أمر نبيه بإبطال تلاوتها لحكمة يعرفها .

ويؤيد هذا الرأي ما أخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانا يقرآن بها . فقاما ذات ليلة يصليان ، فلم يقدرأ منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله ، فذكر ذلك . فقال : انها مما نسخ فلهوا عنها . . .

وفي الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا ، أن قرآنًا نزل فيهم . ان أبلغوا عنا مؤمنًا إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا . . ثم رفع هذا القرآن .

الثاني — ان هذه الأخبار كلها عن آيات وسور نزلت ثم ذهبت غير صحيح . وقد تمسك بهذا القاضى أبو بكر فى الانتصار . وعلل قوله هذا بأن هذه الروايات أخبار آحاد لا يصح التعويل عليها .

الثالث — قال أبو بكر الرازى : نسخ الرسم والتلاوة ، وإنما يكون بأن ينسخهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالاعراض عن تلاوته وكتبه (كتابته) فى المصحف ، فيدرسن على الأيام كسائر كتب الله القديمة

التي ذكرها في كتابه في قوله : إن هذا لفي الصّحف الأولى ، صحف إبراهيم
وموسى ، ولا يعرف اليوم منه شيء .

والذي نراه في هذا الشأن أن المصحف الذي بين أيدينا ليس هو كل
القرآن الذي أنزل على رسول الله . وإنما رفع بعضه . ولا سبيل الى تحديد
هذا القسم الذي رفع منه ، لأن أمر رسول الله بإسقاطه كان يكفي لكي
ينساه الصحابة ، ولا يدونوا منه شيئاً في صحفهم .

وقد ذهب هذا القسم من القرآن ، ولا يمكن أن نعول على الروايات التي
تذكر عن أن هذه الآية أو تلك كانت من القرآن ، ثم لم تصبح قرآناً ، اللهم
إلا ما اختص بالتشريع ، واعتمد عليه الخلفاء بعد النبي في إمضاء أحكامهم
ولا تزيد هذه الآيات التشريعية عن آيتين هما آية الرضاع وآية الرجم .

أما آية الرضاع ، فقد ذكر عن عائشة أنها قالت : ان القرآن جاء في
الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخن بخمس معلومات . فالعشر مرفوعة التلاوة
والحكم جميعاً ، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم .

وقد ذكرت قبل آية الرجم التي نصت على عقوبة الزنا . وقد ذكر أن عمر
كان شديد الاحتفال بحكم هذه الآية حتى أنه قال : لولا أن تقول الناس
زاد عمر في كتاب الله لكتبتها .

وروى أيضاً أنه لما نزلت آية الرجم ذهب عمر الى رسول الله واستأذنه

في كتابتها فكره رسول الله ذلك . ويرى السيوطي أن سبب عدم إثبات هذه الآية هو التخفيف على الأمة بعدم اشتهاار تلاوتها وكتابتها في المصحف وان كان حكمها باقياً لأنه أثقل الأحكام وأشدّها وأغلظ الحدود

ويظهر أن الناس في عهد عمر بن الخطاب تباحثت في حكم الرجم فصعد عمر بن الخطاب الى المنبر وقال : لا تشكوا في الرجم فانه حق . وقد هممت أن أكتبه في المصحف فسألت أبي بن كعب فقال : أليس أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعت في صدري وقلت تستقرئنه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحجر ؟ .

وفيا عدا هذين الحكمين لا يصح التعويل على رواية من الروايات في هذا الشأن .



ومن المسلم به أن أسباب رفع الآيات والسور ، وإسقاطها من صحائف المصحف ، كان أمراً معروفاً لدى الصحابة وواضحاً في أذهانهم أتم وضوح ، حتى أنهم عندما أخذوا في جمع المصحف لم يرو عنهم إلا أيسر اختلاف سنعرض له فيما بعد . . ولو أن أمر هذا النسخ كان من المشكلات التي جابهتهم في حياة الرسول ، إذن لتردد صداها في كتب الحديث أو كتب السيرة . .

وقارى سيرة النبي يعلم أنه كان شديد الحرص على بيان وجهة نظره في كل أمر من الأمور ، وعلى أن يكون صحابته من حوله ، وهم حملة رسالته من بعده فاهمين كل الفهم لتصرفاته ، لأن هذا الفهم أساس من أسس الثقة الكاملة به . .

ولعل محمداً عليه السلام هو أول نبي ، بل أول صاحب دعوة كائنة ما كانت يعمد إلى هذه الأناة الطويلة ، لا في إفهام وجهة نظره ، ولكن في تفهم وجهات نظر الآخرين ، وكثيراً ما رأيناه يباحث في رأى قال به ، ثم يأخذ بما قالوا ويعدل عن رأيه ، أو يأخذون بما قال ويعدلون عن رأيهم وقد قرأت في هذا الصدد بحثاً نفيساً للشيخ عبد الرحمن الجزيري وموضوعه « كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة في الأحكام الشرعية » وقد عرض باحثه فيه لطريقة النبي وأصحابه في تفهم المسائل وإبداء الرأى فيها . وهذا البحث يؤيد ما قلناه ، وهو أن جو « السلام » الفكرى كان يسود المدينة في حياة النبي . ولو أن موضوع الناسخ والمنسوخ كان مما يثير جدلاً ، إذن لتردد صدهاء وإذن لاختلف فيه المسلمون بعد النبي خلافاً واضحاً قوياً . وإذن لخطأ بعضهم بعضاً في أهم أساس من أسس الإسلام وهو القرآن ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، مما يدل على الاطمئنان الكامل إلى أن القرآن الذى تركه رسول الله ، هو القرآن الذى أمره ربه بتركه للناس لايزيد ولا ينقص .

ويحسن أن تقتبس هنا سطوراً من بحث الشيخ الجزيري الذي أشرنا إليه تأييداً لما قلنا . وهو أن ما يوهمه ظاهر البحث في موضوع الناسخ والمنسوخ من وجود خلاف لم يكن له ظل أو صدى في حياة رسول الله . كما لم يكن لغيره من المباحث تأثير يعكس هذا السلام الفكري الذي ذكرناه . قال الشيخ (١) :

(... هنا هو اجتهاد الرسول وأصحابه . فهل رأيهم اختلفوا في أصل من أصول الدين ، أو في عقيدة من العقائد أو في نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ . وهل رأيهم يتحلون في اختلافاتهم دليلاً واهناً أو معنى بعيداً كي يصلوا بذلك إلى غرض شخصي أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيت أحداً منهم يتعصب لرأى أو يحاول الظهور بين الناس بالعلم والذكاء ، والقدرة على افحام مناظره ؟ أو هل رأيت أحداً منهم يضحى في اجتهاده بالمصلحة العامة طمعاً في الحصول على مصلحة خاصة . أو رأيهم جميعاً في اجتهادهم على العكس من ذلك . لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التي يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم . فلا يبعون بها بديلاً ولو قطعت رقابهم وزهقت نفوسهم ؟
نعم . إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لمن يتأمل . فكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم . وساروا في طريقهم واتبعوا آثارهم . فلم يخرجوا عنها قيد شعرة .. »



(١) ص ٦٧٧ الى ٦٨٨ من مجلة الأزهر — المجلد الثامن

الفراءة في عهد أبي بكر وعمر

ما ذكرنا من بحث حتى الآن يدور حول القرآن في حياة رسول الله ..
فلما توفاه الله ، بدأ التفكير في جمع المصحف .

تقول الرواية الذائعة عن جمع المصحف: إن عمر بن الخطاب سأل عن آية
من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة . فقال: إنا لله . وأمر
بجمع القرآن ..

وفي البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال :

أرسل إلى أبو بكر (عقب) مقتل أهل اليمامة . فاذا عمر بن الخطاب
عنده . قال أبو بكر :

— إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر بالمواطن فيذهب كثير من
القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقال زيد لعمر :

— كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله .

قال عمر :

— هذا والله خير .

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في الذى رأى عمر
قال أبو بكر :

— إنك رجل شاب عاقل لا تهتمك . وقد كنت تكتب الوحي
لرسول الله ، فتتبع القرآن فأجمعه .

قال زيد :

فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به
من جمع القرآن . قلت :

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر
أبى بكر وعمر . فتتبع القرآن أجمعه من العسب والخفاف وصدور الرجال
حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمه الأنصارى لم أجدها مع غيره :
« لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ .. إلى آخر
براءة .

هذه أشهر رواية فى كتب الحديث . وتزيد فى بعضها وتنقص فى بعض
آخر . ولكن جوهرها واحد .

ولنرجع إلى كتب التاريخ لنرى قصة أهل البصرة ، وما قالتها عن صلته
بجمع القرآن .

يقول ابن الأثير بعد أن انتهى من ذكر ما كان بين خالد وجيش مسيامة .
وقد قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلاث مئة وستون . ومن
المهاجرين من غير المدينة ثلاث مئة رجل . وقتل ثابت بن قيس . قطع رجل
من المشركين رجله ، فأخذها ثابت وضربه بها فقتله .. وقتل من بني حنيفة
بقرباء سبعة آلاف وبالحديقة مثلها وفي الطلب نحو منها ... ولما رجع الناس
قال عمر لابنه عبد الله وكان معهم : ألا هلكت قبل زيد^(١) هلك زيد
وأنت حي ، الا وارىت وجهك عني . فقال عبد الله : سأل الله الشهادة
فأعطيتها . وجهدت في أن تساق إلى فلم أعطها . وفي هذه السنة بعد وقعة
اليمامة أمر أبو بكر بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قتل من الصحابة لثلا
يذهب القرآن .

ثم ذكر ابن الأثير بعض أسماء القتلى ومنهم عباد بن الحارث الأنصاري
(شهد أحدا) وعمر بن أوس الأنصاري (شهد أحدا أيضا) وعامر بن ثابت
الأنصاري وعمار بن حزم الأنصاري (شهدا بدرا) وعلي بن عبيد الله بن
الحارث ومرة بن النعمان الأنصاري (شهدا أحدا) وسعد بن حجاز الأنصاري
(شهد أحدا) وسلمة بن مسعود الأنصاري والسائب بن عثمان بن مظعون

(١) الظاهر أنه زيد بن الخطاب فقد ذكر الواقدي أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية
المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون صاح بهم : والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله
فأكله بحجتي . عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدما . ولم يزل
كذلك حتى قتل .

(هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا) والسائب بن الزبير أخو الزبير والطفيل بن عمرو السلمي (شهد خيبر) وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن السلول وعبد الله بن عتيك وهريم بن عبد الله المطلي القرشي وأخوه جنادة والوليد بن عبد شمس ابن عم خالد بن الوليد ويزيد بن ثابت أخو زيد بن ثابت .

والسبب في ذكرنا لهذه الطائفة من الأسماء اننا سنعود إليها انرى هل كان حقيقة مقتل هؤلاء ، وهم أشهر صرعى حروب الردة يؤثر في عدد حفاظ القرآن حتى تصح لدينا الرواية الشائعة عن أن مقتلهم كان سببا مباشرا في جمع القرآن؟! .

وفي كتاب الشهر خالد بن الوليد اطه باشا الهاشمي (١)

أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم أو مقدار الخسائر التي كابدوها في المعارك السابقة .

فالروايات عن عدد قتلى المسلمين مختلفة . فهي متفاوتة بين ٥٠٠ و ١٧٠٠ و يروى عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددها نصف قتلى الحنفيين (جيش مسيلمة) وأن الأنصار وخدمهم (وكان عددهم خمس مئة مقاتل) خسروا سبعين قتيلًا ومثتى جريح . أما أبو سعيد الخدري فيزعم أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين . ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين

بلغوا السبعين قتيلا وقتلى الأنصار بلغ السبعين أيضا وأن مجموع قتلى باقى المسلمين بلغ الخمس مئة .

أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الست مئة وأما البلاذرى فيقول : وقد اختلفوا فى عدة من استشهد فى اليمامة . فأقل ما ذكره عن مبلغها سبع مئة . وأكثر ذلك ألف وسبع مئة . وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومئتان . والذى يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح وهو يؤيد الرواية التى يرويها الطبرى نقلا عن سهل إذ يقول : (قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبه المدينة يومئذ ثلاث مئة وستون ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاث مئة من هؤلاء وثلاث مئة من هؤلاء .. ست مئة أو يزيدون) .

ثم قال طه باشا الهاشمى :

« و ذكر المؤرخون أسماء الشهداء من المهاجرين والأنصار ونظموا قائمات بذلك . ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن الخطاب قائد القلب وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة وشجاع بن وهب قائد الميسرة وقيس بن ثابت قائد الأنصار . ويدل كل ذلك على شدة القتال فى المعركة » اهـ .

وقد سقنا المعلومات التى لدينا على هذا النحو لنحاول جلاء نقطتين

غامضتين :

أولهما — أن سبب جمع المصحف — كما تذكر الروايات — أن عمر سأل عن آية فقييل هي عند فلان الذي قتل باليمامة .

ثانيهما — أن في رواية زيد بن ثابت التي ذكرها البخاري شيئاً من الغموض . فبعد أن ذكر أن عمر أقنعه بضرورة جمع القرآن لأن « القتل استحجر في المواطن » قال إن أبا بكر طلب منه نفس الطلب وكان حاضراً في هذا الاجتماع ، وإن زيدا أبا عليه ، فما زال به حتى أقنعه

والذي يبدو لنا أن موت القراء في حروب الردة ليس هو السبب المباشر في إشارة عمر بجمع القرآن . لأننا لو أخذنا بهذا النص الغامض الذي يقول ان عمر سأل عن آية فلم يجدها لأن حاملها قتل ، فاننا نسلم أنفسنا الى مشاكل أشد تعقيداً منها . . مثلاً: هل يجوز أن نوافق على أن آيات القرآن كانت مفرقة على هذا النحو في صدور الرجال بحيث لا تكون آية من الآيات في ذاكرة أحد إلا هذا الجندي الذي مات في حرب الردة ؟ ! وأين هذه الصحف التي قيل انها كانت تكتب بإشراف رسول الله ؟ وأين هؤلاء الصحابة الذين كانوا لا يزالون في المدينة ، وهم زعماء الإسلام ورؤوس الدعوة المحمدية بعد رسول الله ، وكيف تفوتهم هذه الآية وغيرها . . نحن بين أمرين : إما أن نسلم بأن القرآن لم يكن في صدور الرجال وفي الصحف على نحو دقيق

يبعث على الاطمئنان بحيث تجوز هذه الرواية ، وهذا عسير كل العسر . .
وإما أن نسلم بأن هذه الرواية وما سار في طريقها - وهو كثير - غير صحيح
أو على الأقل غير دقيق . .

ويؤيد هذا الذي ذكرنا من اضطراب الروايات عن تاريخ القرآن ،
ووجوب أخذها بشيء غير قليل من الاحتياط ، ما لاحظناه في رواية زيد
ابن ثابت من التدافع الذي يبدو لدى النظرة الأولى .

وقد أشرنا إشارة سريعة ، ونحن نورد رواية ابن الأثير إلى أن من
الواجب أن نمنع النظر كثيراً في هذه الأسماء التي تذكر عن قتلى حروب
الردة ، والتي ذكر طه باشا الهاشمي أن المؤرخين تفننوا في إحصائها وعرضها
واختلفت الروايات اختلافاً كبيراً في عدد القتلى . . إننا لا نلح في هذه
الأسماء ، بقدر ما تدل عليه معلوماتنا عن الصحابة وما تذكر الكتب التي
عنيت بأخبارهم - مثل أسد الغابة - من يصح أن نقول إن فقده يوجد خلافاً
في البناء العقلي للمدينة . . فلا يزال أئمة الصحابة بخير ، ولا يزال الكتاب
والحفاظ ، ولا يزال الصحابة الذين كانوا يلازمون النبي ملازمة متصلة ، أحياء
حتى نهاية حروب الردة . .

ولقد وقفت دائرة المعارف الإسلامية حائرة أمام هذه النقطة ، فهي
لا ترى أن جند خالد الذين فقدوا في حروب الردة من أصحاب الأسماء اللامعة
في تاريخ السيرة النبوية ونحن مع الدائرة في أن حيرتها تستند إلى أساس قوى .

ماذا إذن؟ . . وما هو وجه الصواب؟

نحسب أن الأمر ليس عسيراً كل العسر . والذي نرجحه أن أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة خشوا ، وقد اندفع المسلمون في حروب الردة ثم في حروب الفتح ، أن يهمل أمر القرآن ، وهو معجزة محمد الكبرى ، ودعامة الإسلام الأولى ، فانفقوا على جمعه من هذه الصحائف المتفرقة ، التي كان يكتبها عارفوا الكتابة من الصحابة ، ومن صدور الناس . . فكتب القرآن ، أو على الأصح نقل ما كان منه مكتوباً ، وأكمل بما كان محفوظاً في صدور الرجال .

وقد ذكرنا قبل ان من الروايات ما يقول إن هناك مصاحف كانت موجودة في أيام النبي ، بعضها تم في عهده وبعضها أكمل بعده . ونعقب هنا على هذه الروايات بقولنا انها لا تثبت للنقد الدقيق ، فلو أنها كانت موجودة إذن لما وجد أبو بكر عناء في الأمر بتدوين المصحف ولا كتفى بمراجعة مصحف من المصاحف الموجودة واعتماده . . ثم ان أبا بكر لم يكن يقصد جمع مصحف وإنما قصد مجرد التدوين دون ترتيب .

وفي كتاب المصاحف لابن أبي داود روايات كثيرة عن البدء بجمع المصحف . ويظهر أن من الواجب أن ندقق في فهم كلمة « الجمع » فهي ترد أحياناً بمعنى التدوين وضم الصحائف بعضها إلى بعض ، وترد أحياناً أخرى

بمعنى الحفظ والاستظهار . وليس المعنى الثاني بغريب فهو مستعمل في اللغة العربية ، ولا تزال طوائف من تلاميذ الأزهر وغيره من مكاتب العلم تستعمل كلمة جَمَعَ بمعنى حفظ واستظهر .

وقد أشرنا قبل إلى الروايات التي ترددها كتب الشيعة وغيرها عن أن علياً بن أبي طالب تلقى أمراً من رسول الله بأن يتفرغ « لجمع » القرآن بعد وفاته . وقد ردد كتاب المصاحف وغيره هذه الرواية ، فمثلاً قال علي : لما مات رسول الله آليت ألا آخذ علي رداً إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعه . وشك ابن حجر في هذه الرواية ، وقال : إن سحت فإن المقصود منها أن يكون علي بن أبي طالب قد أراد حفظ القرآن في صدره .

وفي رواية أخرى عن عكرمة لما كان بعد بيعة أبي بكر تعد علي بن أبي طالب في بيته فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك . فأرسل إليه فقال أكرهت بيعتي . قال لا والله . قال : ما أعتدك عنى . قال رأيت كتاب الله يزداد فيه فحدثت نفسي أن لا ألبس رداً إلا لصلاة حتى أجمعه . قال أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت . . .

وإذن فلم يكن هناك قرآن مجموع في عهد النبي . ولم يكن السبب المباشر لجمع المصحف قتل من يسمون القراء في حروب الردة ، وإنما بدى بجمع المصحف بعد وفاة النبي ، لشعور المسلمين بالحاجة إلى جمعه حتى لا يزداد عليه أو ينقص منه .

وأما طريقة زيد بن ثابت في العمل فهي انه جمع ما استطاع جمعه من الآيات والسور المدونة . وكان يسأل ثقة الصحابة ما في صدورهم من القرآن حتى تم له تدوين جميع القرآن في أوراق . وبطبيعة الحال كان يحتاط لما نسخ من الآيات والسور . وكان يراجع في هذا الصحابة حتى يستوثق له الأمر ..

ففي كتاب المصاحف . قدم عمر فقال : من تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به . وكانوا يكتبون ذلك في المصحف والألواح والعسب . وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان .

ويعلق السيوطي على هذه الرواية . وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتب بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً ، مع كون زيد كان يحفظ . فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط .

وفي نفس المصدر (كتاب المصاحف) أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اعدا على باب المسجد فن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه ووقف بعض القدماء بين هذه الروايات وبين القول بأن القرآن كان كله مدوناً في أيام رسول الله . فقال أبو شامة : وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي لا من مجرد الحفظ . وذكر عن آخر سورة التوبة أن زيدا لم يجدها إلا عند شخص واحد . أي انه لم يجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتب بالحفظ دون الكتابة .

وقال السيوطي عن هذين الشاهدين . أنهما يشهدان على أن ذلك مما
عرض على النبي صلى الله عليه وسلم عام وفاته، كما يؤخذ مما تقدم آخر النوع
السادس عشر .

وآخر النوع السادس عشر هو أن زيدا بن ثابت شهد عرض القرآن
آخر مرة على رسول الله . وقد بين فيه ما نسخ وما بقى .

ورواية أخرى عن طريقة الجمع تقول : أقبل الناس بما كان معهم وعندهم
حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق .

ويورد ابن حجر رواية أخرى عن زيد بن ثابت . قال أمرني أبو بكر
فكاتبته في قطع الأديم والعصب . فلما توفي أبو بكر ، وكان عمر ، كتبت
ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده ..

وهذه رواية غير معقولة طبعا إذ يستحيل أن يجمع القرآن في صحيفة
واحدة !!

وفي موطأ ابن وهب عن سالم بن عبد الله بن عمر قال جمع أبو بكر
القرآن في قرطيس . وكان سأل زيد بن ثابت في ذلك فأبى حتى استعان
عليه بعمر ففعل .

وفي كتاب تاريخ القرآن للزنجباني . التأمل الصادق والشواهد يعطى
أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه في الورق . ونقل عن المزهر أن عمر

قال : لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان من قریش وثقیف ، وقال عثمان : اجعلوا المملی من هذیل ، والکاتب من ثقیف .
وبعد أن أتم زید عمله أودعت الصحف التي دونها عند أبي بكر ثم عند عمر مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر .



وعلى الرغم من كثرة النصوص التي رجعنا إليها ، والتي نقلنا بعضها هنا لا يزال هناك بعض الغموض يحيط بالطريقة التي اتبعها زید بن ثابت في جمع صحف القرآن .

فقد ذكر أنه كان يحفظ القرآن كله ، ومن المرجح أن عددا من الصحابة كانوا يحفظون القرآن منهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب .. وربما أبو بكر وعمر . فلماذا لم يجتمع هؤلاء ، ويتموا عملهم مستعينين بالصحف التي أملاها النبي وبذا كرتهم ؟ !

يظهر لنا أن هذه الطريقة الطبيعية المعقولة هي التي اتبعت وأما هذا الجلوس على أبواب المسجد ، واستعراض ما لدى الناس من قرآن ، فأقرب أن يكون إلى الوهم منه إلى الحقيقة . بل إن هذه الآيات من آخر سورة براءة التي يذكرونها لم توجد إلا عند شخص واحد تحتل روايتها الشك .. فلماذا لم تسكن عند أبي بكر وعند عمر وعند زید بن ثابت وعند عبد الله بن مسعود وعند علي بن أبي طالب ؟ !

وكما وقفنا قبل بين فرضين نختار أحدهما . نقف هنا أيضا بين فرضين آخرين لاختار .. فاما أن كبار الصحابة لم يكونوا يحفظون القرآن ، ولم يكن قد دون منه القدر الكافي ، فلجأ زيد بن ثابت إلى اصطياذ الآيات بهذه الطريقة التي رويت .. واما أنهم كانوا يعلمون القرآن علما دقيقا ، ويعلمون ما نسخ منه ، وما أبطلت تلاوته وتم لهم جمع المصحف بطريقة هادئة لا ارتجال فيها . والقراء معناني أن الفرض الثاني هو الذي نختاره ، لأنه أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى طبائع الأشياء ، وهو الذي يحقق الآية الكريمة .
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .



في عهد عثمان

ظاهر من الروايات التي سبق لنا ذكرها في الفصل الماضي أن زيد بن ثابت أتم تدوين الصحف في عهد أبي بكر ، أي أنه استغرق في عمله عاما أو نحوه ، إذا قدرنا أنه لم يبدأ بالعمل أول خلافة أبي بكر مباشرة . وربما كانت هذه الفترة أقل مما يتطلبه عمل ضخم كهذا ، يحتاج إلى كثير من التدقيق واعمال الروية .. وخصوصا أنه كان يحتاج إلى استخلاص الآيات والسور مما نسخ من القرآن ولم يصبح قرآنا .

وسواء تم هذا العمل قبل وفاة أبي بكر أو تم في خلافة عمر ، فالثابت أن الصحف كانت تودع عند الخليفة .. ولم تقف على روايات تقول إن عمر راجع مرة أخرى هذه الصحف ، وذلك لما نرجحه من أنه كان مشتركا اشترا كاعلميا مع زيد بن ثابت وغيره في جمعها وتدوينها .

ولقد مات عمر بن الخطاب ، ونبحت عن الصحف بعده فإذا بنا نجددها عند حفصة بنت عمر وزوج رسول الله .

وتسأل دائرة المعارف الإسلامية لماذا أودعت عند حفصة ، ولم لم تودع
عند الخليفة الجديد الذي ولى أمر المسلمين وهو عثمان بن عفان ؟ !
ويظهر أن اختيار حفصة لكي تكون عندها الصحف تم لسببين :
أولها — أنها كانت زوج رسول الله و بنت خليفة رسول الله .
ثانيهما — أنها كانت تعرف القراءة والكتابة .

وعلى كل حال لن تترتب نتائج هامة على تحقيق المكان الذي أودعت
فيه الصحف ، فما دام قد ثبت أن هذه الصحف كتبت ، وأنها كانت عند
عمر ، فلتكن من بعده عند حفصة أو عند غيرها ، فالذي يعيننا هو أن نسأل
سؤالا آخر أهم مما سألت دائرة المعارف :

لماذا لم يأمر أبو بكر ، أو عمر بنسخ صور مما كتب زيد بن ثابت !
ولماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لدى كل واحد منهم أولدى
بعضهم على الأقل نسخ من هذه الصحف التي تتضمن كتاب الله ؟

الجواب على هذا السؤال عسير . ويمكن أن نقول ان هذه الصحف
التي كتبها زيد ، إنما أريد منها أن تكون وثيقة للتسجيل أكثر منها أى
شئ آخر .. ولم يقصد منها أن يستعان بها في حفظ أو مراجعة . وذلك لأن
تلاميذ محمد عليه السلام الذين علمهم القرآن ، وبصرهم به ، كانوا أحياء .
وكانت مدارس تحفيظ القرآن لا تزال موجودة . ثم إن المسلمين وقد اطمأنوا
في هذا العهد إلى تسجيل قرآنهم ، لم يشغلوا أنفسهم به ، فقد كانت أمامهم

مسائل جسيمة على غاية من الخطورة تستنفد كل وقتهم ونعني بها هذه الغارة العظيمة التي شنوها على امبراطوريتي كسرى وقيصر .



فلما كان عهد عثمان بن عفان جد من المناسبات ما دعا إلى إعادة النظر في أمر هذه الصحف التي كتبها زيد بن ثابت .

روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان ، قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام في فتح ارمينية واذر بيجان مع أهل العراق ، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلى إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة . إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانه إنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال زيد :

ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فالتسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وهي : « مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . فألحقناها في سورتها في المصحف وهناك رواية أخرى في كتاب اختلاف المصاحف لابن أبي داود مؤداها أن عثمان لما أراد أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلا من قريش والأنصار ، فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر ، فجاء بها . وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تداروا في شيء أخروه . قال محمد فظننت إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله .

وإذن فقد أمر عثمان بتأليف لجنة تقول رواية البخاري إن عددها أربعة ، وتقول رواية أخرى إنهم أكثر ، ولكن من المؤكد أن من بينهم زيدا بن ثابت ... والسبب في تأليف هذه اللجنة لإعادة النظر في أمر صحف القرآن هو هذه اللغات التي فصلنا أمرها فيما مضى ، والتي ورد فيها حديث : « نزل القرآن على سبعة أحرف » وقد اختصم الناس في عهد عثمان — وربما كان خصامهم أسبق من عهده ولكن لم تظهر له نتایج حتى أيامه .

وقد روى في شأن هذا الخصاص عن أنس بن مالك قال : اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون . فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندي تكذيبون به وتلحنون فيه . فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً .

وأكثر لحناً... يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً... فاجتمعوا
فكتبوا. فكانوا إذا اختلفوا وتداروا في أي آية قالوا هذه أقرأها رسول الله
فلاناً. فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك
رسول الله آية كذا وكذا فيقول كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لها مكاناً.
وفي رواية أخرى أن الخلاف كثير في عهد عثمان في وجوه القراءة حتى
قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، نخشى
من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره
ومن هاتين الروايتين يفهم أن الخلاف في القرآن كان فاشياً في البلاد
البعيدة حيث سافر المسلمون للفتح، كذلك وجد في المدينة وفي غيرها...
وهذه الخلافات في عهد عثمان تقطع بأن أبا بكر وعمر لم يفرضا مصحف زيد
إبن ثابت على الناس. بل ظل كل من لديه ورقة مكتوبة من عهد النبي
متمسكاً بها. وكل من لديه صيغة من الصيغ سواء كانت من القرآن الباقي
أو من القرآن المنسوخ كان يتلوها، ويعتقد أنها هي القرآن.



ما الذي عملت هذه اللجنة التي تقول رواية انها من أربعة، وتقول أخرى
انها أكثر من أربعة؟...
راجعت اللجنة كما في رواية البخاري الصحف التي كانت مودعة عند
حفصة ورتبت سورها، وما غاب منها أكلته.

وإذن فلم يجمع القرآن في عهد عثمان، وإنما اعتمد اعتماداً كبيراً على ما تم في عهد أبي بكر. وبعد أن تم الاتفاق على صيغ جميع الآيات، ومكانها في السور، وترتيب السور، ووافق عثمان على ما انتهت إليه اللجنة من رأى، انتسخت أربع نسخ أو أكثر من «الامام» فهكذا أسمى مصحف عثمان وأرسلت إلى الأمصار، وصدر أمر أمير المؤمنين بأن تصدر جميع الصحف والأوراق التي يحتفظ بها المسلمون حتى ذلك العهد، وأمر بها فأحرقت إحراقاً وألزم الناس بقراءة واحدة هي التي وردت في «الامام».

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في نقش القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات (كذا!!) الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه، ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءاته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد.



الصحابة ومصنف عثمان بن عفان

أتمت اللجنة التي اختارها عثمان بن عفان عملها ، وكان ذلك في عام ٢٥ للهجرة أو في عام ٣٠ ، وربما كان بين هذين العامين لأنه عمل كثير يستغرق إنجازه أكثر من عام .. وصدر أمر أمير المؤمنين بأن يحمل الناس على اتباع ما في « الامام » وهو المصحف الذي تمت كتابته ، وأن تبطل ما عداه من قراءات .

ومن ذلك الوقت والحديث متصل حول عثمان ومصحفه . . .
ففي أخبار سنة ٣٠ يروى كتاب الكامل لابن الأثير سبب اختلاف الناس في القرآن ، يقول ان أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وانهم أخذوا القرآن عن المقداد . وأهل دمشق يصوبون قراءتهم عن قراءة غيرهم وأهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على عبد الله بن مسعود وأهل البصرة يتمسكون بما أقرأهم أبو موسى الأشعري ويسمون مصحفه لباب القلوب .

وقد نقل تفصيل هذا الخلاف إلى عثمان ، فأمر بنسخ مصحف الامام كما ذكرنا ، وفرق النسخ في الآفاق . . فشكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة ، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب رسول الله . واما أصحاب عبد الله بن مسعود ومن وافقهم فقد امتنعوا من ذلك وعابوا الناس . فوقف فيهم عبد الله يأمرهم بالهدوء والتزام الطاعة . وكان هما قال لأهل المسلمين الذين نقدوا مصحف عثمان على ملا من الناس . اسكت ، فعن ملا منا فعل ذلك . فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله .

ولكن الروايات الأخرى التي أوردتها كتاب الإتيان نقلا عن الكتب التي عرضت لعلوم القرآن تدل على شيئين

أولا — أن عثمان لم يصادر مصاحف كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب

ثانيا — أن هذه المصاحف كانت تختلف في بعض التفاصيل عن مصحف عثمان

وأظهر الروايات تروى في هذا الصدد ما ينسب إلى عبد الله بن مسعود من أنه أنكر على اللجنة العثمانية أن تضيف إلى القرآن المعوذتين « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ »... « وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » .

قال ابن حجر في شرح البخارى قد صح عن ابن مسعود إنكار

المعوذتين ، فأخرج أحمد وابن حبان عنه أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه .

وأخرج غيره أن عبد الله بن مسعود كان يحك المعوذتين من مصحفه ويقول انهما ليستا من كتاب الله .

وأخرج البزار والطبراني من وجه آخر أن ابن مسعود كان لا يقرأ بهما . وكذلك كان يرى هذا الرأي في فاتحة الكتاب

وبذا يكون مصحف ابن مسعود ١١٢ سورة بدلاً من ١١٤ .

وقد حاول كثيرون من القدماء والمحدثين الرد على هذه الروايات المنقولة عن ابن مسعود وهذا الرد على قسمين :

أولاً — رد ينكر أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا أو تأوله .

ثانياً — رد يعتمد هذه الروايات ولكنه يخطئها .



فأما إنكار أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا ، فقد ذهب النووي في شرح المهذب الى أن المسلمين أجمعوا على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، ومن جحد منها شيئاً كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . وقال ابن حزم : هذا كذب على ابن مسعود وموضوع .

وقال الإمام نجر الدين الرازي : نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ، وهو قول في غاية الصعوبة ، لأننا إن قلنا ان النقل المتواتر كان حاصلًا في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن فإنكاره يوجب الكفر . وإن قلنا لم يكن حاصلًا في ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل . . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل وبه يحصل الخلاص من هذه العقدة .

وقال القاضي أبو بكر ، لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه وإنما حكمها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها ، لا جحداً لكونها قرآناً لأنه كانت السنة عنده أن لا يكتب في المصحف إلا ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإثباته فيه ، ولم يجده كتب ذلك ولا سمعه أمر به .

وفي بحث أنشأه الأستاذ فريد وجدى تحت عنوان : « رد شبهات على القرآن الكريم » يناقش فيه ما ورد في كتاب الوحي الجديد ، تعرض لهذه النقطة . . فهو ينقل عن هذا الكتاب قوله :

« إن ابن مسعود هنا — وقد نعت به بأنه أعلم الناس بالقرآن — لم يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة ، وأنه رفض أن يسلمه نسخة ليحرقها ، وأنه أشار على أهل العراق ليكتبوا نسخهم قائلاً ، يا أهل العراق آتكموا المصاحف التي عندكم وغلقوها . وإنه حذف السورة الأولى (أي الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته ، بحجة أن تلك السورتين ليست من كتاب الله . . »

وردد الأستاذ وجدى بقوله:

« يمكن أن يتساءل منهم ، أى مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه فى شىء ؟ أرموا بذلك إلى غرض من الأغراض التى تحمل النفوس السافلة على التحريف ، وليس فيها ما يشوه جمال القرآن ، ولا ما يتناقض الحكمة التى أتى بها ؟ وهل يعقل أن يضع المحرمون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين ، فى أمة تعبد بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحياه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم فى جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه إلى ناحية أخرى لكان الخطب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج لشىء من العلاج ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة فى أظهر مكان منه فأمر لا يحتمل النظر فضلاً عن الدخس .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخباً ولا يهيج غضباً ، ولا يستدعى شقياً (١) وبمركانه لم يكن فى أمة دستورها هذا الكتاب وحده ، ومقيداً سورة وآياته ؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوى فى العالم الإسلامى دوى الرعود القاصفة ؟ لعل تقول خشى بأس عثمان . فقد قتل عثمان ، وابن مسعود حتى يرزق (٢) فلم لم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ، ويلجأ إلى الخليفة ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التى ليست منه ؟

ما الذى حمل المسلمين ، والدين لا يزال فى نصرته ، وكتابه مرجعهم فى جميع شؤونهم ، ومقيدهم فى صلواتهم على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأساً ؟ ألا أنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة ، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرقوه ، وقد دالت دولتهم ، وتلتها دولة أخرى على رأسها على بن أبى طالب أقل ما يقال فيها أنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة ؟

وهذا الاجماع كله على عدم الاكترات لقول ابن مسعود ، وهو ينبه إلى أمر جليل كان يكفى خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيراناً .

(١) فى كتب التاريخ أن من أسباب فتنة بعض الأمصار على عثمان حرق الصحف السابقة له ، وقد روينا قبل أن ابن مسعود نفسه كان يحاول تهديئة الناس فى الكوفة وكان على بن أبى طالب ينهى أن يسمى عثمان حرق المصاحف .

(٢) مات عبد الله بن مسعود عام ٣٢ هـ فى السنة التى مات فيها عبد الرحمن بن عوف والعباس عم النبي عليه السلام . وكان عثمان فى ذلك الوقت حياً ، إذ كان مقتلاً سنة ٣٥ هـ



ذلك هورد من ينكر أن ابن مسعود حذف الفاتحة والمعوذتين من القرآن .
ونحسب أن ناسا إذا وقفوا على رأينا هذا في ابن مسعود قد يستعظمونه ،
ويقولون إنه قول غير لائق في حق صحابي جليل . ونحن لا ننكر أن ابن
مسعود من أجل الصحابة شأنا وأعلام مكانا ، ولكن لم يقل أحد بعصمة
عبد الله ، ولا بعصمة غيره من الصحابة .

ولقد قال غيرنا من القدماء في بعض الصحابة ما عن لهم من رأى لا رغبة
في التجريح ، ولكن إشارا بحق فيما دلهم عليه يقيهم .
فقد أورد ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث مناقشة النظام ، لحديث
رواه ابن مسعود قال :

زعم ابن مسعود أن القمر انشق وأنه رآه . وهذا من الكذب الذي
لا خفاء به . لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ، ولا لآخر معه . وإنما
يشقه ليكون آية للعالمين وحجة المرسلين ، ومزجرة للعباد ، وبرهاننا في جميع
البلاد ، فكيف لم تعرف بذلك العامة ، ولم يؤرخ الناس بذلك العام ولم
يذكره شاعر ، ولم يسلم عنده كافر ، ولم يحتج به مسلم على ملحد .

ويعلق كتاب فحى الإسلام على هذا النقد بقوله وإنما قال النظام ذلك
لما روى له أن ابن مسعود قال : رأيت حراء بين فلقى القمر . وكان النظام

يرى أن انشقاق القمر الوارد في الآية إنما يكون يوم القيامة . فترى كيف كان النظام جريئاً في تحكيم المنطق في رواية ابن مسعود .
وما نحن بصدده ليس رواية من هذا النوع ، ولكنه يتصل بصلب القرآن ، فأحر بنا ألا نجامل وألا نقيّد بقيود لا خير منها ، ولا طائل تحتها .



هذا نوع من أنواع النقد الذي وجه إلى مصحف عثمان ، وهو ينصب على زيادات وردت فيه .

ونوع آخر يخالفه ، وهو ينصب على نقص ورد فيه .

فقد كان مصحف أبي بن كعب من المصحف الموجودة ، وقد أورد فيه أبيّ دعاء القنوت وهو في سورتين : اللهم إنا نستعينك ، اللهم إياك نعبد . ويقال ان علياً بن أبي طالب كان يرى أن القنوت من القرآن .

تناقش عبد الله بن زهير العافقي الشيعي مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . قال الخليفة :

— لقد علمت ما حملك على حب أبي تراب الا أنك أعرابي جاف فقال
عبد الله :

— والله لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك ولقد علمت منه
عليّ بن أبي طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك .

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من
يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ، نرجو
رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق .

وروى أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك .. الخ . قال ابن جريج : حكمة
البسمة انهما سورتان في مصحف بعض الصحابة .

وروى أن أبي بن كعب كان يقنت بالسورتين وأنه كان يكتبهما في
مصحفه وتابعه عبد الله بن عباس وأبو موسى الأشعري .

وبذا يكون مصحف أبي ١١٦ سورة . قيل والصواب ١١٥ لأنه جعل
سورة الفيل وسورة الائتلاف واحدة .

وكانت سورتا القنوت تسميان سورتي الخلع والحفد .

ونكتفي في مناقشة هذه الروايات بهذا الرد الحازم القوي الذي رد به
القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن . قال في الفصل الخاص عن
« كلام النبي وأمور تتصل بالإعجاز » وهو رأى يؤيد ما سبق ان ذهبنا إليه
في التفريق بين أسلوب النبي وأسلوب القرآن :

إن قال قائل: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، وقد قال
هذا في حديث مشهود ، وهو صادق في قوله فهلا قلتم إن القرآن من نظمه

لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره . مثل قد علمنا أنه لم يتحداهم
مثل قوله وفصاحته . والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر
ما بين شعر الشعراء وكلام الخطيبين في الفصاحة . وذلك مما لا يقع به
الإعجاز . وقد بينا قبل هذا . انا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنشور ،
وبين نظم القرآن ، يبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام
الناس . ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم معجز ،
وإن كان دون القرآن في الإعجاز . فإن قيل لولا أن كلامه معجز لم يشبهه على
ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرها من القرآن . وكذلك لم يشبهه
دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن !! ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن
من غيره ، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط وقد يجوز أن يكون شذ عن
مصحفه لأنه نفاه من القرآن ، بل عول على حفظ الكل . على أن الذي
يروونه خبر واحد ، لا يسكن إليه في مثل هذا ، ولا يعمل عليه ، ويجوز أن
يكتب على ظهر مصحفه . وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين
مصحف ابن مسعود ومصحف عثمان رحمة الله عليهما .



المصحف بعد عثمان

وهذا الذي أشار إليه الباقلائي من أن مرجع الإضافات الكثيرة التي تروى في اخبار الأحاد إلى القرآن إنما هي شروح أو مذكرات كتبها أصحاب المصاحف القديمة عليها ، فحسبها المتأخرون قرآنا وأضافوها إلى متن مصاحفهم . وقد ألقت كتب كثيرة تعرض هذه الأقوال ، وتفندها منها كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة عن الكسائي ، وكتاب اختلاف المصاحف لخلف ، وكتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف للضراء ، وكتاب اختلاف المصاحف لأبي داود السجستاني ، وكتاب اختلاف المصاحف وجميع القراءات للمدائني ، وكتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبي ، وكتاب محمد بن عبد الرحمن الأصفهاني في اختلاف المصاحف .

ومن أشهر من روى القراءات الشاذة محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ ، فقد أورد الكثير من الروايات التي تقحم في الآيات كلمات بلي

جملاً نسبها للمتقدمين . وكان المسلمون في عصره أوسع صدرا من أن يحكموا بتأثيره وكفره ، وغاية ما وصفوه به أنه أحق وقد توفي في رواية ابن النديم سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة في محبسه بدار السلطان ، وكان الوزير أبو علي ابن مقله ضربه أسواطاً ، فدعا عليه بقطع اليد ، فاتفق أن قطعت يده ، وهذا من عجيب الاتفاق .

ومن الروايات الشاذة التي أوردها ابن شنبوذ : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة « فامضوا » إلى ذكر الله .

ومنها : وكان (أمامهم) ملك يأخذ كل سفينة (صالحة) غصباً ..

ومنها : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف (ناهون) عن المنكر (ويستعينون الله على ما أصابهم) أولئك هم المفلحون . والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ..

يروى ابن النديم . ويقال إنه اعترف بذلك كله ثم استتيب وأخذ خطه بالتوبة فكتب يقول : قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، والذي اتفق أصحاب رسول الله على قراءته . ثم بان لي أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مقلع ، وإلى الله جل اسمه منه برىء . إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يقرأ غيره ..



وإذا استثنينا القراءات الشاذة ، فإن مصحف عثمان ظل هو الامام .

ولم يعرف عن خليفة من الخلفاء جاء بعده — حتى على بن أبي طالب الذي كان في صف المعارضة أيام حكمه ، انه بدل في مصحف عثمان أو غير فيه ، بل يقول الشيعة انه هو الذي أشار على عثمان بجمع المصحف .

ففي كتاب تاريخ القرآن للعالم الشيعي الأستاذ الزنجاني :

ذكر علي بن محمد الطاوس العلوي الفاطمي في كتابه سعد السعود نقلا عن كتاب أبي جعفر محمد منصور ورواية محمد بن زيد بن مروان في اختلاف المصاحف أن القرآن جمعه على عهد أبي بكر زيد بن ثابت . وخالفه في ذلك (أبي) و(عبد الله بن مسعود) و(سالم) مولى حذيفة . ثم عاد فجمع المصحف برأى مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام . وأخذ عثمان مصحفاً أبي وعبد الله بن مسعود وسالم مولى حذيفة فغسلها . وكتب عثمان مصحفاً لنفسه ، ومصحفاً لأهل المدينة ، ومصحفاً لأهل مكة ، ومصحفاً لأهل الكوفة ، ومصحفاً لأهل البصرة ، ومصحفاً لأهل الشام .

ويروى أن علياً بن أبي طالب كان يدافع عن عثمان ضد أعدائه ويقول « إياكم والغلو في أمر عثمان ، وقولكم حراق المصاحف » .



وقد جد المسلمون بعد مضي ثلث قرن على الهجرة في حفظ القرآن وتجويده وانتساح مصاحفه حتى إننا نرى المصاحف ترفع في الحرب بين علي ومعاوية حقناً للدماء وطلباً للهدنة .

ولا نكاد نعرف على وجه دقيق عدد المصاحف التي كانت موجودة في هذه الحادثة ، والتي قيل انها ثلاث مئة ، وقيل أقل . ولكن من المرجح أنها كانت أقل حتى ان دائرة المعارف ترجح أنها كانت مصحفا واحدا . وربما كان هذا صحيحا إذا راعينا جواز كتابة المصحف في عدة أجزاء . وذلك لعدم احكام الكتابة وكبر الحروف الهجائية في ذلك الوقت .

ومضى الزمن كان يجمع المسلمين أكثر وأكثر حول المصحف الامام حتى نسيت المصاحف الأخرى التي كانت موجودة ، والتي يقال ان بعضها موجود حتى الآن . فقد ذكر الشيخ الزنجاني أنه رأى في سنة ١٣٥٣ في دار الكتب العلوية في النجف مصحفا بالخط الكوفي كتب على آخره . كتبه على بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة .



ترتيب المصحف

البحث في ترتيب المصحف على قسمين :

أولاً — قسم يتناول ترتيب الآيات .

ثانياً — قسم يتناول ترتيب السور .

يقول السيوطي : الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات

توقيفي لا شبهة في ذلك ..

وذلك أن رسول الله كان يدل على مكان كل آية في سورتها .

ويؤيد هذا الرأي قول عثمان بن أبي العاص :

كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ شخص ببصره ثم

صوبه ، ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من

هذه السورة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى .. » إلى آخرها

وقد التزم عثمان في تدوين المصحف ما علم أنه رأى رسول الله في ترتيب

الآيات . فقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : والذين يتوفون

منكم ويزرون أزواجاً قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال عثمان :
يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه .

والمفهوم بداهة أن رسول الله كان يقرأ في صلاة الجماعة وغيرها الكثير
من سور القرآن وكان يقرأها مرتبة الآيات .

ولكن السجستاني في كتاب المصاحف يروي عن الزبير بن العوام قال :
أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال أشهد أني
سمعتهما من رسول الله ووعيتهما . فقال عمر وأنا أشهد لقد سمعتهما . ثم قال
لو كانت ثلاث آيات جعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن
فالحقوها في آخرها .

والمفهوم من هذه الرواية أن الصحابة بعد رسول الله كانوا يجتهدون في
ترتيب الآيات ويعملون برأيهم لا بتوقيف من رسول الله حسب الروايات
السابقة . إلا أن من العسير أن نسمح لهذه الرواية بأن تقتحم إجماع المسلمين
على أن ترتيب الآيات كان بأمر من النبي .

ومع تسليمنا بأن هذه الآيات رتبت في سورها حسب أمر رسول الله
إلا أني لم أقف بعد على رأى القدماء في القواعد التي كان النبي يتبعها في
ترتيب السور .

فالثابت أن حكماً من الأحكام كان ينزل مجزئاً وكان ينزل بين أجزاء
هذا الحكم أو السورة آيات أخرى في موضوع آخر . ومعنى هذا أنه لم تكن

تنزل آيات موضوع وأحد في وقت واحد فكان على رسول الله أن يدل على مكان هذه الآية من سورتها .

ولا يمكن الاهتداء حتى الآن — على سبيل الجزم واليقين — إلى خطة معينة نقول ان رسول الله سار عليها في الترتيب أو أن الوحي التزمها في إرشاده إلى هذا الترتيب . إذ الثابت من الروايات السابقة وغيرها أن الوحي كان يدل النبي على مكان الآيات من السور .

ولنضرب مثلاً ما نقول بسورة المزل :

فهذه السورة مكية إلا الآيات ١٠، ١١، ٢٠ فمدنية. تبدأ بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

وهي تسع عشرة آية من السورة تراها تلتزم فواصل واحدة تقريباً . ونعياً متصلاً ، وموضوعاً متسلسلاً . . . ولكننا نرى في الآية الأخيرة من السورة ، الفاصلة التي تكررت في - قليلاً ، ورتيلاً ، وثقيلاً ، وقيلاً ، وطويلاً .. الخ تتغير . والنعم الذي يتمشى في الآيات يتغير ، كما يتغير نفس الموضوع الذي تناولته وهذه هي الآية الأخيرة رقم ٢٠ وهي مدنية كما قلنا :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَأْتِيهِمْ فَاَقْرَأْ أَوْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ

مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَآقَرُوا مَا تَبَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فهذه الآية الطويلة التي تعد من أطول آيات القرآن ألحقت بسورة آياتها قصيرة ونعماها وفواصلها متصلة .. فما هو وجه إضافة هذه الآية الى هذه السورة؟ لا سبيل إلى الرد على هذا السؤال . وغاية ما نقول انها إرادة إلهية اقتضت هذا الوضع لهذه الآية ولغيرها من الآيات التي يمكن أن يقف القارىء عندها كما وقفنا نحن هنا . ولم يرد عن رسول الله ولا عن صحابته قول يفسر حكمة الترتيب كما أن العلماء بعد أن تحاشوا البحث في هذه النقطة اكتفاء بما تقرر وثبت من أن جبريل كان يرشد النبي عليه السلام الى الترتيب فكان النبي يأمر الكتاب والمسلمين بأن تكون الآية في الموضوع الذي قرره لها^(١) ..

(١) في غير هذا الباب ، وهو موضوع ترتيب الآيات ، بذلت محاولات كثيرة طوال ثلاثة عشر قرنا لمحاولة وضع ضوابط للقرآن ولكن كل القواعد التي وضعت حتى الآن لم تطرد اضطرادا حتى قواعد النحو والبلاغة التي أخذت مباشرة من القرآن لا يمكن تطبيقها في جميع الحالات ومن أطرف ما يروى في هذا الباب ما حدث في محاورات الرافعي والعقاد فقد حاول أن يستنبط أولها قاعدة وهي أن تتابع الحروف المتشابهة في القرآن تحدث نغما معيننا وضرب بهذا مثلا الآية . « ولقد أنذرهم بطشتنا فبارأوا بالنذر » وأظن في وصفه - وهي محاولة سبق إليها الرافعي . وقد رد عليها العقاد يسأله رأيه في تكرار الميم في الآية : « قل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »

قال البغوى فى شرح السنة : الصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله من غير أن قدموا شيئاً أو أخرجوا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله يلقن أصحابه ويعلمهم فأنزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية ان هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقاً عند الحاجة وتوتيب النزول غير ترتيب التلاوة .

هذه هى عقيدة علماء المسلمين فى ترتيب آيات القرآن وأما المستشرقون فلهم مذهب آخر . فهم كما ذكرنا قبل لا يسمون ابتداءً بأن القرآن من عند الله وتمشياً مع هذا الحكم يشكون شكاً قوياً فى أن النبى هو الذى أملى ترتيب آيات المصحف وأن لجنة عثمان هى التى قامت بهذا العمل ويقولون إن أكثر من يد وأكثر من رأى عمل فيه .

وأما ترتيب السور فهو باجتهاد اللجنة العثمانية ، ولا سبيل إلى الأخذ بالأقوال التى تحاول أن تسند هذا الترتيب إلى أمر رسول الله . وكل ما يمكن

أن يؤخذ به هو أنه قد يكون عرف عن النبي أنه قال: إن هذه السورة قبل تلك وعين سورا معينة . أما ترتيب القرآن كله فقد تركه لاجتهاد أمة المسلمين من بعده . ولاداعي لنقل الأقوال التي تؤيد هذا الرأي ، إذ أن الخلاف عليه قليل . ولكننا ثبت هنا رواية عن ابن عباس توضح هذا المعنى كما تزيد الطريقة التي كان يتبعها عثمان بن عفان ولجنته في عملهم بيانا .

روى ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثين ، فقرتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد . فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولا . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها . فقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتما في السبع الطوال » .

والظاهر من مراجعة مصحف عثمان أنه وأعوانه اختاروا ترتيب المصحف حسب طول السور وقصرها في أغلب الأحيان لأن هذه القاعدة لا تطرد

اطرادا منتظما . وإلا لكانت سورة العصر مع سورة الكوثر وسورة الإخلاص في آخر المصحف ولما تأخرت عن العصر سورة الماعون مثلا .

وكم كان يكون نافعا ومفيدا لو أن عثمان أشار بترتيب المصحف حسب تاريخ نزول السور . ولكن يظهر أنه اعترض هذا العمل صعوبات أهمها أن السور لم تنزل دفعة واحدة وإنما كانت بعض آيات من سورة تنزل قبل البعض الآخر بمدة طويلة . بل إن سورا كثيرة نزلت في مكة وأكملت في المدينة . كما أن الترتيب التاريخي على فرض عدم وجود هذه الصعوبة يقتضى جهدا أكبر من الترتيب الحاضر الذي روعى فيه — على الأغلب الطول والقصر — ولكن من المؤكد أن المسلمين في ذلك العهد كانوا أقدر من غيرهم على القيام بهذا العمل . وهو ترتيب المصحف ترتيبا تاريخيا لأنهم كانوا أصحاب رسول الله . وقد نزل القرآن عليه وهو بينهم . فعرفوا مناسبة كل سورة وكل آية . وظلت في ذاكرتهم . وقد علموها لتابعيهم من بعدهم . ووصلت إلينا معلوماتهم في عصر التدوين أي بعد قرن ونصف على الأقل . وهي مدة غير قصيرة سمحت لكثير من التحريف والتحوير أن يشوب هذه الروايات .

ولم يكن ترتيب مصحف عثمان متفقا مع ترتيب أشهر المصاحف التي كانت موجودة في عهده : وأهمها مصحف علي بن أبي طالب ومصحف أبي ابن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود ومصحف عبد الله بن عباس .

وفي كتاب الإتيان طائفة هامة جدا من الترتيبات حسب أسباب النزول ،
وقد أورد كتاب تاريخ القرآن ترتيب المصاحف السابقة مع ترتيب مصحف
جعفر الصادق .

وقد وصف تاريخ القرآن مصحف الإمام علي بأنه كان في سبعة أجزاء ،
وقد أتى به يحمله على جعل وهو يقول : هذا القرآن جمعته !!

ولم يلتزم الترتيب التاريخي في مصحفه ، ولا ندرى حكمة انصراف هؤلاء
الصحابة عن اختيار هذه الطريقة في ترتيب مصاحفهم ، مع أن نرى مثلا ابن سعد
ينقل عن عبد الله بن عباس أنه سأل أبي كعب عما نزل من القرآن بالمدينة
فيخبره بأنها ٢٧ سورة ويذكرها له . فلم يكن إذن الصحابة غافلين عن هذه
المسألة . ومع هذا تراهم أهملوها في مصاحفهم ، كما أهملها عثمان في المصحف
« الامام » .

وفيما يلي الترتيب التاريخي كما رواه ابن عباس :

السور المبكية

| | | |
|------------|------------|---------------|
| ١ - اقرأ | ٥ - تبت | ٩ - الفجر |
| ٢ - ن | ٦ - الشمس | ١٠ - الضحى |
| ٣ - المزمل | ٧ - الأعلى | ١١ - ألم نشرح |
| ٤ - المدثر | ٨ - الليل | ١٢ - العصر |

| | | |
|------------------|---------------|---------------|
| ٤٩ - بني اسرائيل | ٣١ - الهمة | ١٣ - العاديات |
| ٥٠ - يونس | ٣٢ - المرسلات | ١٤ - الكوثر |
| ٥١ - هود | ٣٣ - ق | ١٥ - التكاثر |
| ٥٢ - يوسف | ٣٤ - البلد | ١٦ - الماعون |
| ٥٣ - الحجر | ٣٥ - الطارق | ١٧ - الكافرون |
| ٥٤ - الأنعام | ٣٦ - الساعة | ١٨ - الفيل |
| ٥٥ - الصافات | ٣٧ - ص | ١٩ - الفلق |
| ٥٦ - لقمان | ٣٨ - الأعراف | ٢٠ - الناس |
| ٥٧ - سبأ | ٣٩ - الجن | ٢١ - الإخلاص |
| ٥٨ - الزمر | ٤٠ - يس | ٢٢ - النجم |
| ٥٩ - المؤمنون | ٤١ - الفرقان | ٢٣ - عبس |
| ٦٠ - السجدة | ٤٢ - الملائكة | ٢٤ - القدر |
| ٦١ - الشورى | ٤٣ - مريم | ٢٥ - الضحى |
| ٦٢ - الزخرف | ٤٤ - طه | ٢٦ - البروج |
| ٦٣ - الدخان | ٤٥ - الواقعة | ٢٧ - التين |
| ٦٤ - الجاثية | ٤٦ - الشعراء | ٢٨ - قريش |
| ٦٥ - الأحقاف | ٤٧ - النمل | ٢٩ - القارعة |
| ٦٦ - الذاريات | ٤٨ - القصص | ٣٠ - القيامة |

| | | |
|---------------|---------------|---------------|
| ٨١ - الانفطار | ٧٤ - السجدة | ٦٧ - العاشية |
| ٨٢ - الانشقاق | ٧٥ - الطور | ٦٨ - الكهف |
| ٨٣ - الروم | ٧٦ - تبارك | ٦٩ - النحل |
| ٨٤ - العنكبوت | ٧٧ - الحاقة | ٧٠ - نوح |
| ٨٥ - المطففين | ٧٨ - المعارج | ٧١ - ابراهيم |
| | ٧٩ - النبأ | ٧٢ - الأنبياء |
| | ٨٠ - الفازعات | ٧٣ - المؤمنون |

السور المدنية

| | | |
|---------------|-----------------|---------------|
| ١٠٦ - الحجرات | ٩٦ - الرحمن | ٨٦ - البقرة |
| ١٠٧ - التحريم | ٩٧ - الإنسان | ٨٧ - الأنفال |
| ١٠٨ - الجمعة | ٩٨ - الطلاق | ٨٨ - آل عمران |
| ١٠٩ - التغابن | ٩٩ - البينة | ٨٩ - الأحزاب |
| ١١٠ - الصف | ١٠٠ - الحشر | ٩٠ - الممتحنة |
| ١١١ - الفتح | ١٠١ - النصر | ٩١ - النساء |
| ١١٢ - المائدة | ١٠٢ - النور | ٩٢ - الزلزلة |
| ١١٣ - براءة | ١٠٣ - الحج | ٩٣ - الحديد |
| | ١٠٤ - المنافقون | ٩٤ - القتال |
| | ١٠٥ - المجادلة | ٩٥ - الرعد |

وقد رتب المستشرق المعروف نولدكه (صاحب أكبر كتاب أوربي ألف عن القرآن) المصحف ترتيباً تاريخياً وصفه تاريخ القرآن بقوله : سلك في كشف تاريخ السور مسلكاً قوياً يهدي إلى الحق أحياناً . فإنه جعل بدر والحنديق وصلح الحديبية وأشباهاها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها . وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتاريخ آياته .

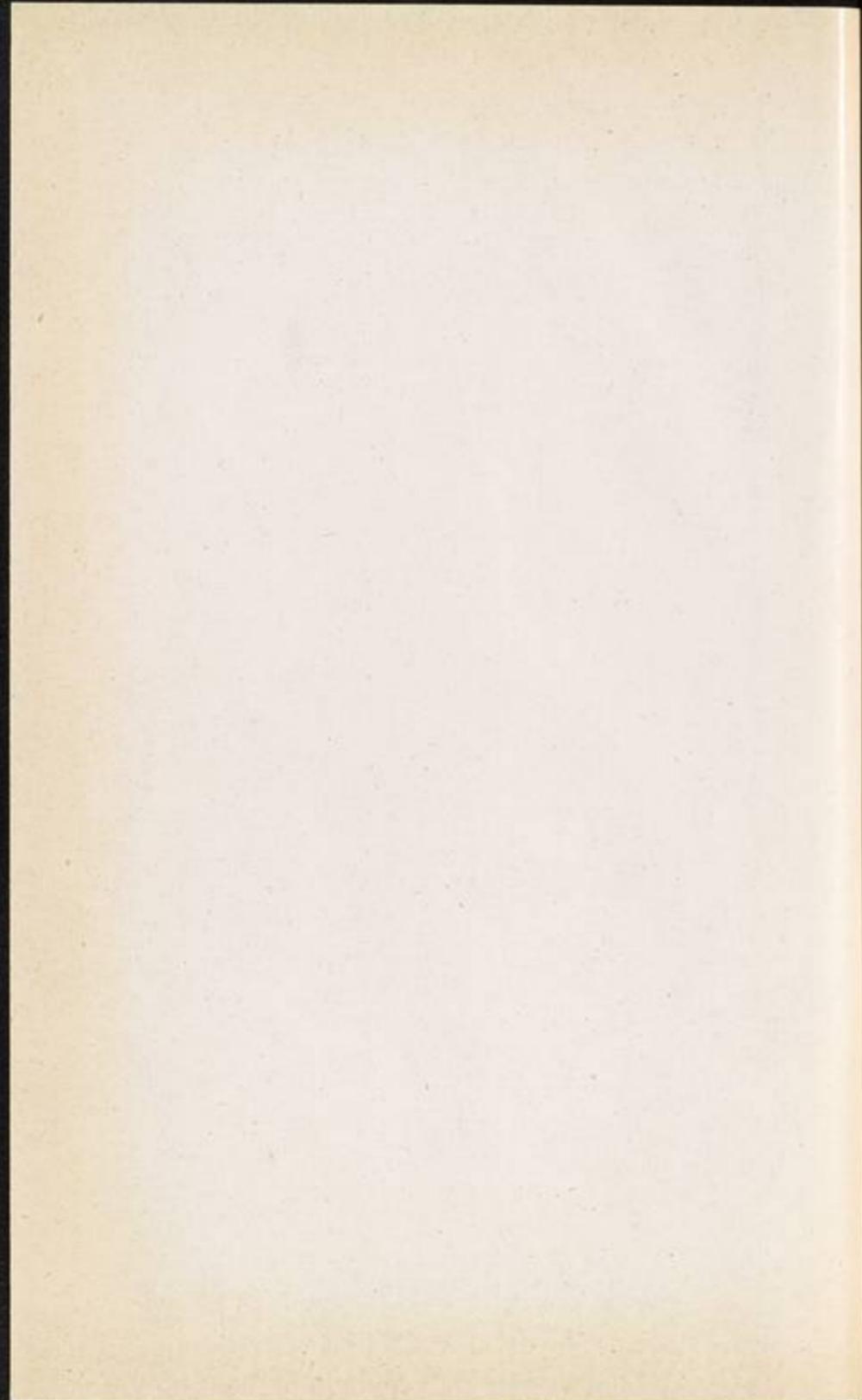
فيقول ان الغالب في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ (يا أيها الناس) والشدة في الانذار نزلت في أول النبوة وقلة عدد المسلمين . والخطابات بلفظ (يا أيها الذين آمنوا) وآيات الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين وهو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تاريخ القرآن .

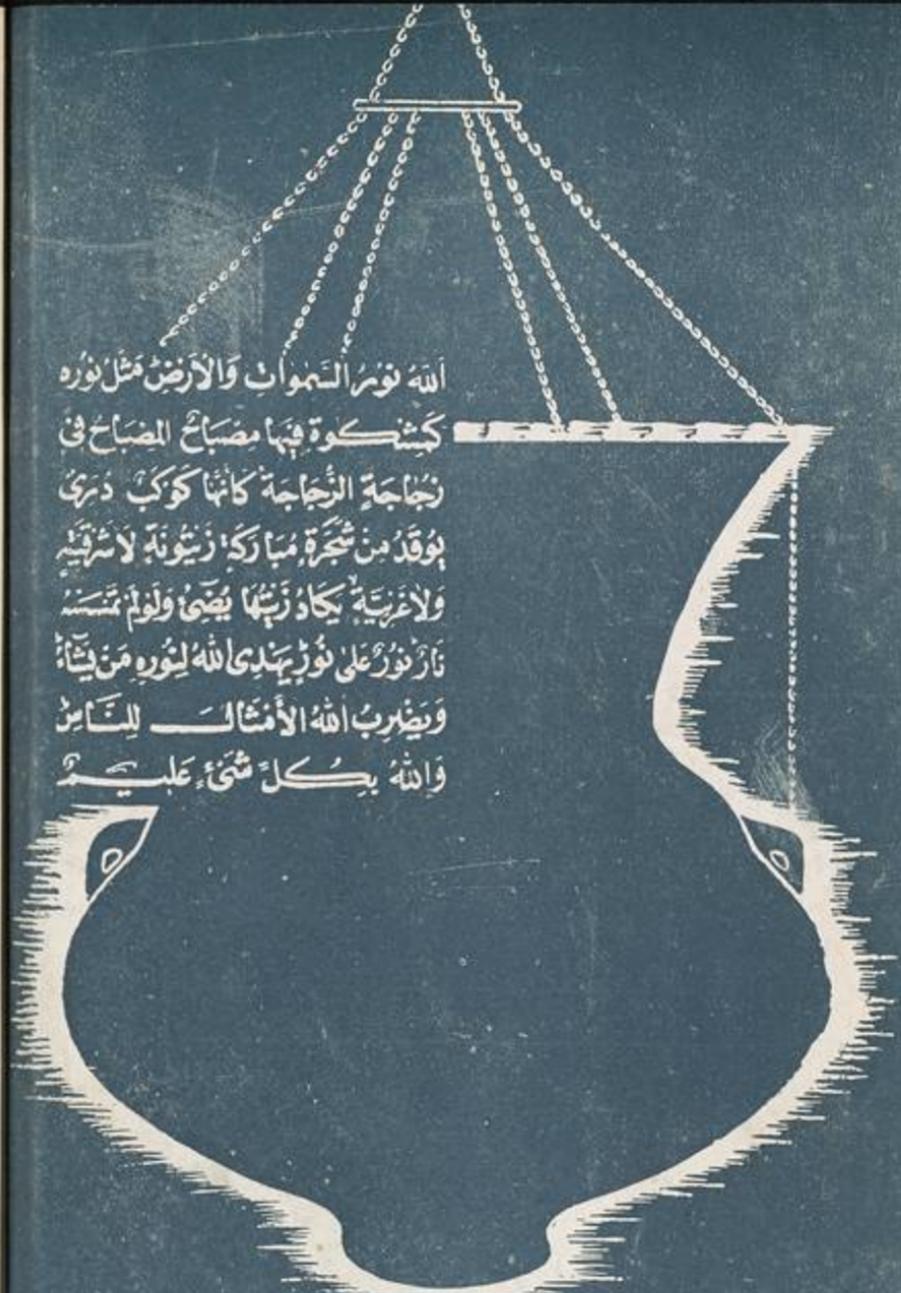
وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره ويرشده إلى كشف تاريخ السور والآيات ونظمها أحياناً .

أخذ ترتيب السور عن كتاب (أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي) من رجال القرن الخامس الذي ذكرنا ترتيبه وكلامه . ولكنه قسمه إلى قسمين : القسم المسكي والقسم المدني . وهو يضع سورة العلق مثلاً وهي أول ما نزل على مارواه المحدثون في أول القرآن وسورة القلم وهي التي تليها في النزول بعدها وهكذا .

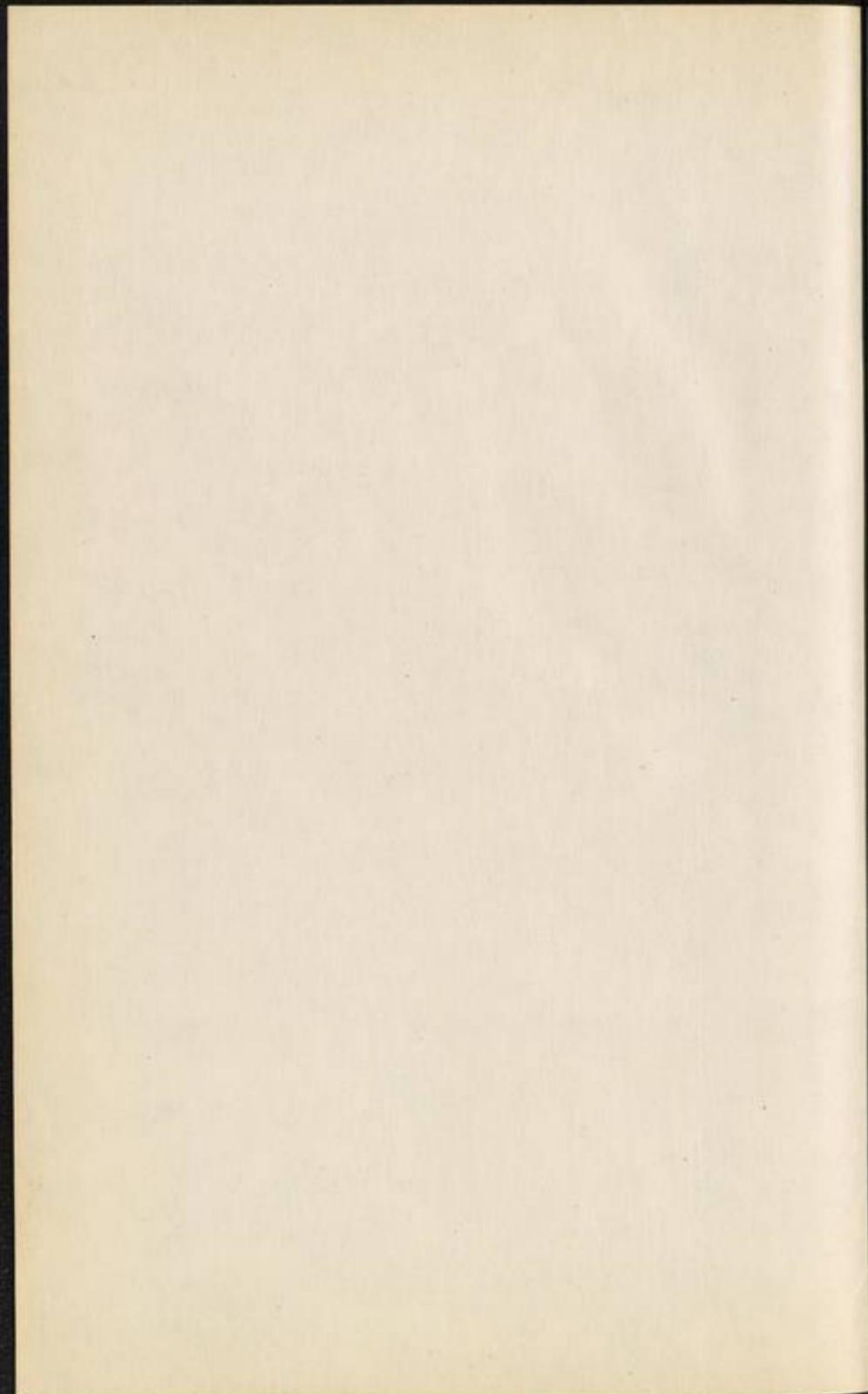
فهرس

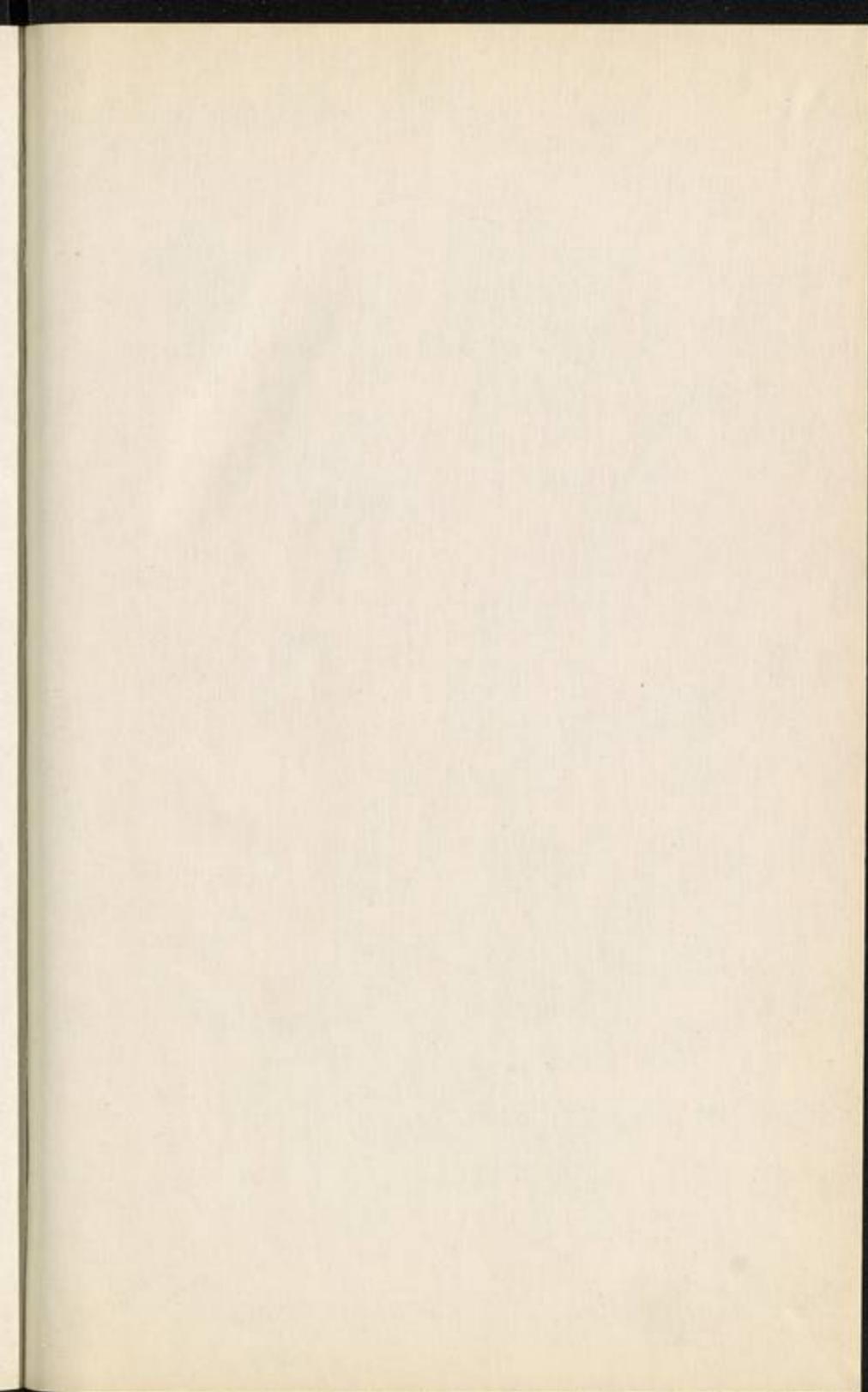
| صحيفة | صحيفة |
|--------------------------------|----------------------------|
| ١٦٩ لفظ ومعنى | ٥ مقدمة المؤلف |
| ١٦٩ موضوع القرآن | ١٩ صوت من السماء |
| ١٧٧ حوار وقروض | ٣٥ الوحي |
| ١٨٥ مصحف عثمان | ٤٤ في ثلاث سنين |
| ١٩٢ الناسخ والمنسوخ | ٤٩ القرآن وقريش |
| ٢٠٦ القرآن في عهد أبي بكر وعمر | ٦٣ بين مكة والمدينة |
| ٢١٩ في عهد عثمان | ٧٩ النبي والقرآن |
| ٢٢٥ الصحابة ومصحف عثمان | ٩٢ لغة القرآن |
| ٢٣٤ للمصحف بعد عثمان | ١٣٠ فوايح السور |
| ٢٣٨ ترتيب السور | ١٣٥ القلوب وأفعالها |
| ٢٤٥ السور المكية | ١٣٦ قرآن مكة وقرآن المدينة |
| ٢٤٧ السور المدنية | ١٤٢ أسلوب القرآن |
| ٢٤٩ ترتيب القسم المكي | ١٥١ تحدى القرآن |
| ٢٤٩ » القسم المدني | ١٥٧ محاولات التقليد |

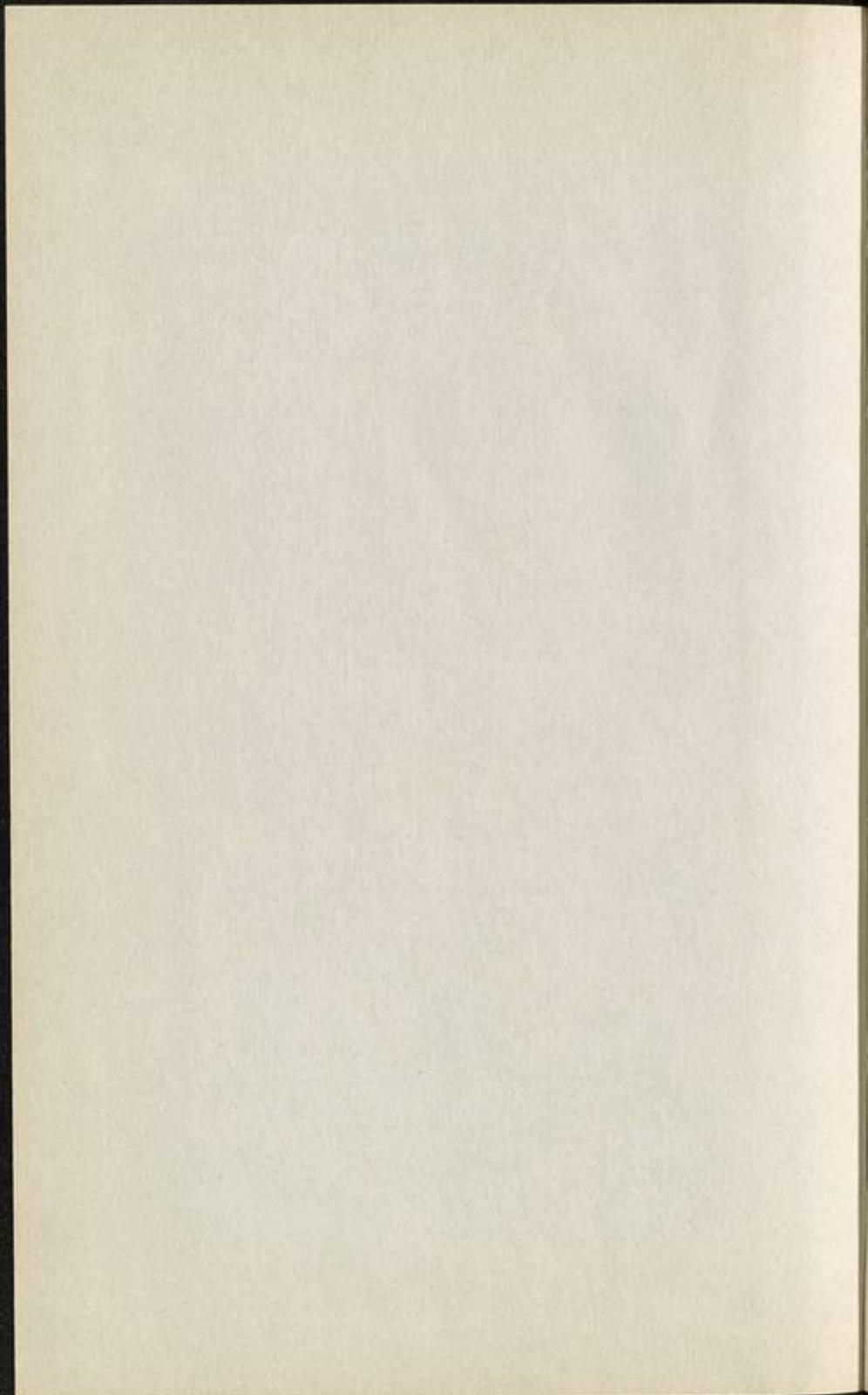


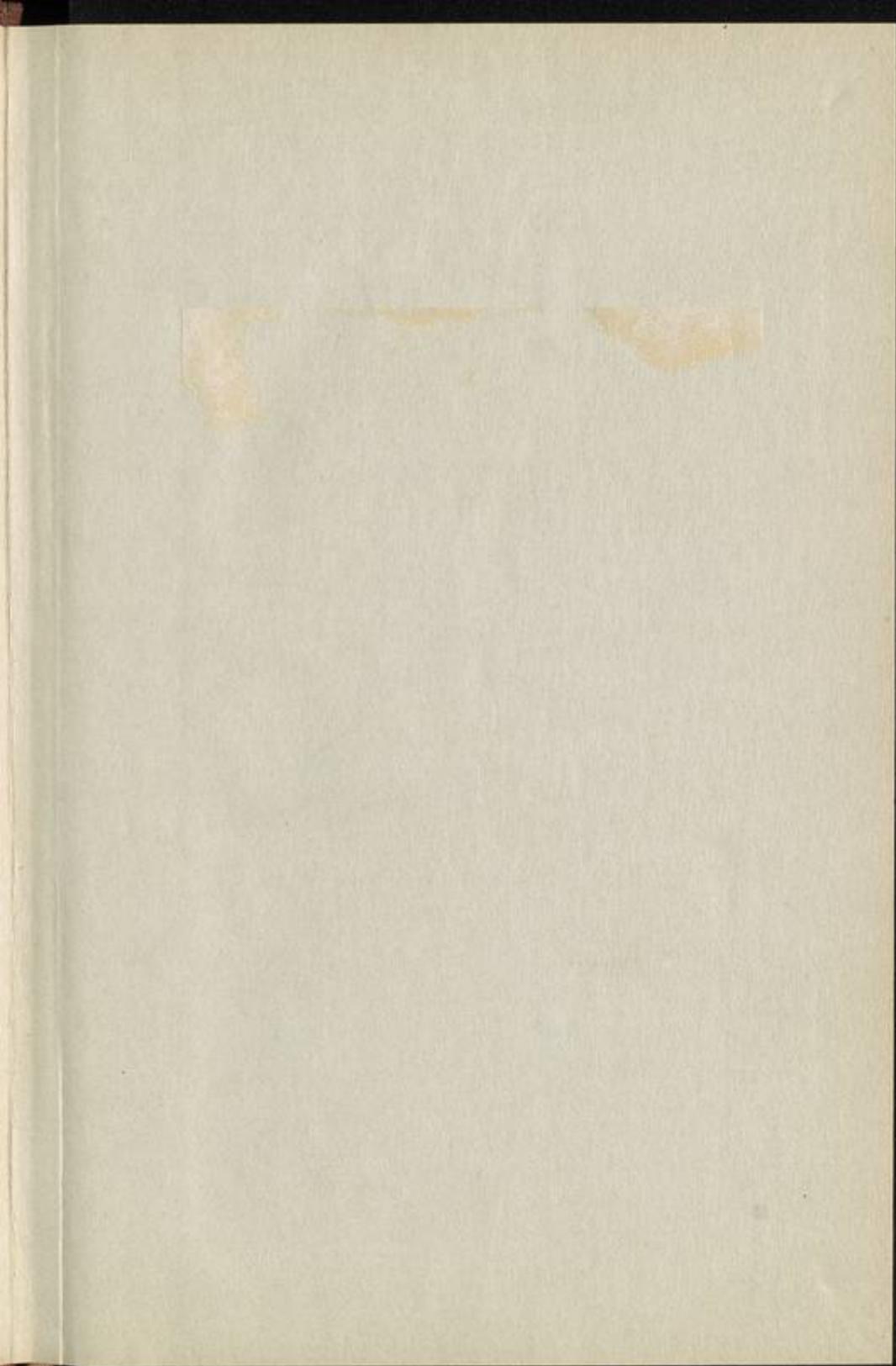


الله نور السموات والأرض مثل نوره
كشكوة فيها مصباح المصباح في
زجاجة زجاجة كأنها كوكب دري
وقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية
ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه
نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء
ويضرب الله الأمثال للمتقين
والله بكل شئ عليم









893.7K84

DS 94

JAN 9 1948

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58923608

893.7K84 DS94

Quran.